سلسلة: القراءة النفسية للأدب



قراءات نفسية فى بعض الإبداعات الأدبية

إبراهيم عبد المجيد، يوسف القعيد، يوسف جوهر، سعيد الكفراوي، محمد قطب

محمد المنسي قنديل، فؤاد قنديل، لطيفة الزيات، إسماعيل ولي الدين

دكتور
محمد حسن غانم
جامعة حلوان - قسم علم النفس

المكتبة المصرية
٣ ش أحمد ذو الفقار - لوران الإسكندرية
تلفاكس: ٥٨٤٠٢٩٨/ ٠٣ / ٠٠٢
محمول: ٠١٢/٤٦٨٦٠٤٩

سلسلة : القراءة النفسية للادب

العدد (7)

قراءات نفسية فى بعض الإبداعات الادبية

إبراهيم عبد المجيد . يوسف القعيد . يوسف جوهر . سعيد الكفراوي . محمد المنسي قنديل . محمد قطي . لطيفة الزيات . فؤاد قنديل . إسماعيل ولى الدين

الدكتور

محمد حسن غانم

كلية الاداب – قسم علم نفس

جامعة حلوان

2009



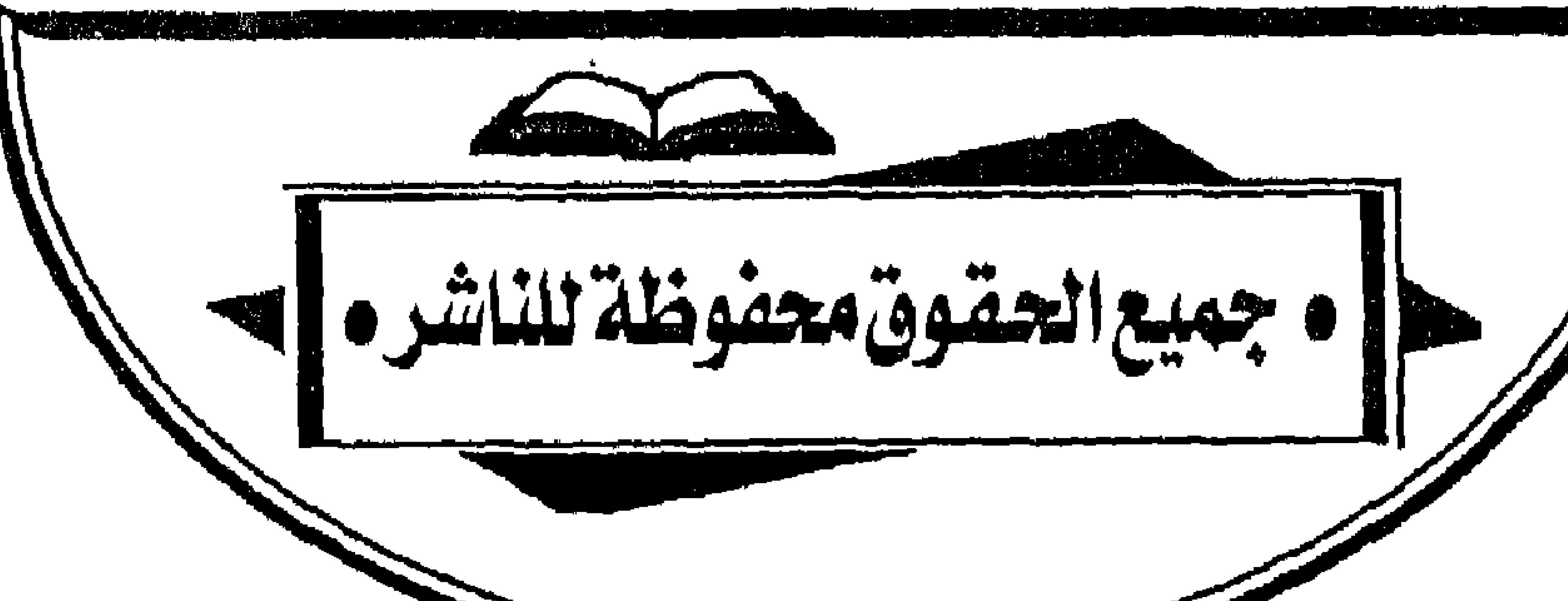
للطباعة والنشر والتوزيع

3 ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية

تليفاكس : 002/03/5840298

محمول : 0124686049

اسم الكتاب : قراءات نفسية في بعض الابداعات الأدبية ج ٧
إبراهيم عبد المجيد/ يوسف القعيد/ يوسف جوهر/
سعيد الكفراوي/ محمد المنسي قنديل/ محمد قطب/
لطيفة الزيات/ فؤاد قنديل/ اسماعيل ولي الدين.
اسم المؤلف : د. محمد حسن غانم
اسم الناشر : المكتبة المصرية
٣ ش أحمد ذو الفقار - لوران - الإسكندرية
تليفاكس: ٠٠٢٠٣/٥٨٤٠٢٩٨
الطبعة : الطبعة الأولى
رقم الإيداع : 2005/ 21056
الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977 - 411 - 278 - 4



المحتويات

قــــراءة نفسيــــة فى قصــــة

الغريبـــــان

لإبراهيم عبد المجيد

١- قراءة نفسية في قصة: الغريبان

لإبراهيم عبد المجيد(*)

قـــال الإمام علي بن ابي طالب "الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن" ذلك أن الفرد حين يشعر بالفاقه والحاجة في وطنة فإنه يضحى غريبا.

ولـــذا فقـــد امتد مفهوم الغربة والاغتراب Alienation ليشمل معاني متعددة مثل:

- الغربة هي فقدان العلاقة مع الآخر.
- الغربة هي فقدان العلاقة مع الذات.
- الغربة حالة يظهر فيها الأشخاص والمواقف المألوفة للمفرد كموضوعات غريبة عليه.
- الغربة حالة يشعر فيها الفرد بأنه ذاته غير حقيقية.
- الغربة هي حالة يشعر فيها الفرد بأنه غريب وشاذ عن نفسه أو الآخرين أو في طريقة إلي ذلك.
- الغربة هي حالة تشير إلي وجود كدر ومشقة واضطرابات في الشخصية (لدرجة أن بعض العلماء قد قرن بين الاغتراب وبين الجنون او الاصابة بالمـــرض العقـــلي والنفسي) وما يقود من عدم توافق الفرد توافقا يخل بعلاقـــات الفرد السوية مع ذاته ومع الآخر، ذلك الآخر الذي من خلاله تتشكل صورة الذت وتتضح.

ولعـــل المفهـــوم الشـــعبي للغربة والاغتراب لا يبتعد كثيرا من هذا المعنى ولذا نجد:

- الغربة كربه.

(*) ابراهيم عبد المجيد: الشجرة والعصافير، مختارات فصول، العدد ٢٤، ١٩٨٦ من ص ٥١: ٦٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

- الغربة تربة.
- الغريب اعمي وإن كان بصير.
- من خرج من داره أتقل مقداره.

ثـــم نجد علي النقيض في الامثال الشعبيه ان الموقف من الفقر موقفا مشـــينا إلي درجة القول: "الفقير لا يتهادى ولا يداوي ولا تقوم له في الشرع شـــهادة" إضافة إلي القول والحكم علي الفقر بضروة الابتعاد عنه "لأن الفقير رحته وحشة".

ولذا فقد كثرت- ايضا- الوصايا والحكم والامثال التي تحصن علي ضرورة القناعة والرضا مثل:

- من رضي بقليله عاش.
- من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته.
- اللي ياكل بالخمسة يلطم بالعشرة.
- تجري جرى الوحوش غير رزقك لن تحوش.
- اللي ما يرضي بحكم موسي يرضي بحكم فرعون.
- اللي عنده عيش وبله عنده الفرح كله.
- ان حضر العيش يبقي السمني (أي الغموس) شبرقه.

ونســـوق كل ما سبق كمدخل لبيان حقيقة المصري قد عرف عنه – قديمـــا- الاســـتقرار بيـــد أن هـــناك العديد من المتغيرات التي ولدت لدي المصـــريين طموحات عديدة لتحقيقها، ولذا فقد أقدم الكثير منهم علي السفر للعمل خارج الوطن.

وإذا كان السفر للخارج- كما يبدو- ناتجا عن دافع اقتصادي فلا شك أن هناك العديد من الدوافع والاحتياجات النفسية والاجتماعية والتي تتمثل في الرغبة في الاستقرار والشعور بالأمان، وتحقيق الذات.

ولقد أصبح السفر للخارج ظاهرة شغلت العديد من الباحثين والدراسين وقد أجمعت كافة الدراسات علي أن ترك الأرض والوطن والهجرة إلي الخارج (حتي وإن كانت مؤقتة) لها العديد من المساوئ مثل:-

- وجود تصدع في الكيان الاسرى وخاصة إذا كان هناك فروقا ثقافية كبيرة بين وطني المغترب والبلد الذي سيعمل فيه من حيث العادات والتقاليد وانعكاس ذلك علي توافق الشخص.
- تغير في البناء القيمي والأخلاقي للشخص.
- إحساسه بعدم الانتماء إلي وطنه وإن وطنه لا يعطيه ما كان تيوق إليه.
- انحراف العديد من الأبناء ودخولهم إلي عالم الإدمان/ الإنحراف/ تبني أفكار غريبة وشاذة.
- قيام الأم بدور مزدوج (الأم+ الأب) مما أدي إلي تأنيث الأسرة- خاصة في تلك الأسر التي يسافر عائلها ويترك أسرته في مصر.

هذه المقدمة هامة وضروريه لتناول قصة الغريبان وملخص القصة أن غريبان التقيا في أحد شوارع الرياض وهما يبحثان عن عنوان كفيلهما بيد أن المشكلة أن الثاني ضاعت صرته والتي كان بها "هدومي وأكلي ومحفظتي وجواز السفر" (ص ١٦).

في حين أن الغريب الأول ضاعت حقيبته (ويعود يبحث مع الغريب الثاني عن صرته حيث أدرك علي نحو مباغت أدرك أنه وضع الأجندة التي بها عنوان صاحبه وتليفونه في حقيبته الصغيرة، وأنه حين قام يبحث مع الرجل عن الصرة ترك حقيبته علي الأرض. (ص٦٦ – ٦٧).

كل ذلك يتم في أحد شوارع الرياض حيث الحرارة الخانقة، والرطوبة العالية، والسياج البشري الذي يفصل الغريبان المصريان عن أهل البلدة، حيث لا تواصل ولا تفاعل ولا ألفة بالمكان ولا الأشخاص بل غربة غارقة في غربة في الداخل والخارج ورغم أن الغريبان التقيا في الطائرة إلا

أنهمـــا كـــان٬لا يعـــرفان بعضهما البعض بل هما مجرد مصريين ذهبا إلي الخارج لأسباب شتي تأتي في مقدمتها – بدون شك– العامل الاقتصادي.

وهذا اسماعيل يمني نفسه في الغربة بأنه يستطيع بعد عام أن يخطب نجـوي، وبعـد عام أن يحجز الشقة، وبعد عام يتزوج، أو يتزوج ويحضر نجوى معه بعد العام الأول فقط. (ص٥٩)

وليــس هــذا فحسب بل المفارقة التي تدعو إلي الضحك بعد اجراء اســماعيل والمغــترب الاول، للمقارنة بينه وبين المغترب الثاني والخروج بنتيجة أنه أفضل منه.

"فالــرجل جاء يعمل "جنايني" في مزرعة صغيرة براتب ألف ريال، بيــنما جاء هو ليعمل "كاتب" علي الآلة الكاتبة راتبه ألف وخمسمائة ريال.. الــرجل فــي الخمســين من عمره أو يزيد، وهو في الثلاثين للرجل ولدان صغيران وخمس بنات في سن الزواج، وليس لدي اسماعيل أعباء إلا نفسه. (٥٨ : ٥٩).

بيــد أن هــذا الارتكــان إلي حالة التميز قد انهارت بعد أن أكتشف بــالدليل والواقــع والأدلة الدافعة أنهما غارقان إلي أذنيهما في وحل الغربة والذل والامتهان واللامبالاة بهم من قبل الآخرين. وإن الغربة ليست نزهة– كما تخيلا او حلما.

بل هي عناء واذلال ومشقة ومكابدة تصل إلي درجة تفتيت الكرامة والمعاناة.

ولكــن مــا معني ضياع "صده" الثاني وحقيبة الأول رغم احتوائهما علي أوراق عبورهم إلي الغربة بصورة رسمية؟ وهل لهذا الضياع معني أم أن الأمر لا يعدو أن يكون ضربا من العشوائية والمصادفة والحظ؟

ولعل الدرس الأول الذي يعلمنا إياه التحليل النفسي إن كل ما يصدر مــن الإنســان له معــني ودلالة، وأنه لا عشوائية في الحياة الإنسانية، وان

السلوك لمحتوم وله معني وان جهل الإنسان القائم بهذا السلوك لا يغيير من وجود هذا المعني وتلك الدلالة.

ولذا فإن ضياع الصرة وترك الحقيبة، بل أن المغترب الثاني قد نسي ورقـــة العنوان مع السائق، وفشل المغترب الأول في تذكر اسم (وحتي رقم تليفون صديقه الذي دبر له اجراءات السفر الا يشير كل ذلك إلي عدة دلالات منها رفض الغربة، ومبادلة اللامبالاة باللامبالاة، ورفض التقولب في قوالب الآخر حتي وإن كان الأخر في التحليل النهائي شقيق ويشترك معنا في الدين والعادات والتقاليد).

ألا يشير النسيان لأوراقهما الرسمية إلي رفض الأنخراط في طابور الاحتراق بالمال والنفط والاغتراب.

ولعل عبقرية الكاتب قد تجلت حين ركز علي الاحداث والغريبان في المطـــار ينـــتهيا من الإجراءات حيث لمح موقفا او انتفاء الإدراك له معاني ودلالات فقاعـــة المطار خاصة بالمشاهده والرؤي والأخبار. فلماذا التقطت عيناه هذا المشهد تحديدا "أدرك فقط في انتباهه لا إرادية أن حوله ضجة لكن عينيه تركزتا علي قاعة زجاجية خاصة بالرجال والشباب. كانوا من جنسيات مختلفة. لكن بدا له أنهم جميعا مصريون. كان أمام باب القاعة بعض الجنود حولها يدور عدد من الرجال والنساء والأطفال يتفرجون ويتحدثون. فهم من الحديث أن هناك محلات تقوم بها الشرطة للقبض علي الموجودين دون إقامة شرعية وترحيلهم إلي بلادهم" (ص ٥٢).

الا يشـــير هـــذا الإدراك منذ اللحظة الأولي لملامسة قدمية لأرض المطار إلي معني أخر وهو تعمده بطريقة غير شعورية إلي أن تضيع أوراقه حـــتي ينضـــم إلي زمرة المتواجدين بصورة شرعية، وبالتالي يحق للسلطة القـــبض عـــليه وترحيله عائدا إلي بلده بعد أن فقد السند الشرعي، الأوراق والتي تعطيه شرعية الاستمرار والوجود في أتون الغربة.

اضــافة إلــي أن كــل ما وقع عليه عيناه -حتي بعد أن خرج من المطــار- يصب كله في باب: رفض الغربه، والرغبة اللاشعورية الجارفة إلــي العــودة إلــي احضــان الوطــن، حتي وأن تأخرت أحلامه ومن هذه الملاحظات الطاردة له.

"اصطدم وجهه بالشمس، أغمض عينيه للحظات أمام الفضاء الأبيض المتسع" ص٥١.

حين قفز إلي التاكسي شعر بالخوف ولاحظ ذلك السائق. ص ٥١

ويســتطيع أن يقــف طيــلة النهار في ميدان العتبة دون أن يصاب بالجــنون، قوة مجهولة في نفسه اقامت حوله خط دفاع من نوع غريب. ص ٥٣

اخــتلاف العــنوان بين اسماعيل والسائق الذي خدعه وأوصله إلي مكان غير المطلوب (من ص ٥٣: ٥٦).

بــدت المباني خالية ومعتمة في عيني اسماعيل. السيارات راضخة ذليلة افرغت شمس الظيره كل شئ حوله من الحياة ص ٥٦.

وهكــذا تــتعدد الاشارات والعلامات وأنتقاء الأدلة التي تؤيد رغبته الشعورية في رفض الغربة والتي وصلت إلي قمتها بضياع الحقيبة والصرة ومــا تحــتويان من أوراق وملابس، والعودة إلي الوطن حتي وإن عادا الي الفقر، لان الانتماء للوطن قوة لا تعادلها شئ آخر.

قــراءة نفسيــة فى قصــة

الضحك لم يعد ممكنا

ليوسف العقيد

٢- قراءة نفسية في قصة: الضحك لم يعد ممكنا

ليوسف القعيد(*)

يوســـف القعيد من الأصوات الأدبية التي لها مكانتها في عالم القص ليس فقط في مصر وإنما في العالم العربي، نتيجة لاصطياده لحظات انسانية ثـــم تسليط الضوء عليها أو تكثيف هذه اللحظة لدرجة أنك وأنت منهمك في القـــراءة تتســـاءل: هـــل يكـــتب عني أم يكتب عن أخر وما هو هذا الآخر وحدوده؟

أن تلاشي الفواصل والحواجز بين القارئ (المتلقي) والعمل الإبداعي هي ميزة من أهم ميزات نجاح العمل الإبداعي.

ولعـــل العـــنوان/ القصــــة (الضحك لم يعد ممكنا) والتي جاءت في تسلســـل نهايـــه المجموعـــة القصصـــية، هذا الأختيار لان تكون القصة اما للمجموعة لم يأت اعتباطا وإنما تكمن خلفه العديد من الدوافع حتي وإن كانت غائبة عن وعي الكاتب.

وإذا القيـــنا نظرة تحليلية إلي عنوان القصة نجد كلمة: الضحك وهو فـــي حـــد ذاته فعل يشير إلي حالة وجدانية تنتاب الشخص، وتعبر في الآن نفسه عن ارتياح الإنسان ودخوله في عالم توافقي بين الذات والآخر، ورغم استفاضة تحليل هذا الفعل الوجداني (الضحك) من حيث مدي ملائمة الضحك للموقف، والشدة، والكمية، والاستمرارية، وهل الضحك صادق (أي نابع من توافـــق الذات مع أفعال الخارج) أومصطنع بفعل عوامل الكبت، والهروب، وضخامة الاحباط .

(*) مختارات فصول، رقم ٣٦، يناير ١٩٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب (من ص ٦٥: ٨١).

وهنا يكون الضحك ميكانيزم دفاعي أو هروب يلجأ إليه الشخص أو ما يطلق عليه علم النفس التحليلي (ميكانيزم القلب أو التكوين العكسي) أي يظهر الأنسان عكس ما يخفي.

وقد تكون كثرة الضحك إلي درجة الهوس دليلا دافعا وتشخيصيا علي دخول الفرد ضمن فئة مرضية (الهوس/ الاكتئاب) حيث تنتاب الفرد حالة من المرح إلي درجة الهوس وعدم الاتزان تعقبها حالة عكسية من الاكتئاب إلي درجة الانتحار وقتل الذات وربما الآخرين.

ولجوء الفرد إلي الضحك أو ما يسمي في الاصطلاح النفسي "سلاح النكتة" وكيف أن هذا السلاح/ الميكانيزم قد تناوله علم النفس بالدراسة والتحليل.

فعلي سبيل المثال – لا الحصر– يري فرويد أن أحد دوافع خلق النكتة هو العدوان، ولكنه عدوان مكفوف لأن التعبير عنه صراحة أمر يثير الخوف والقلق، ولذلك تخرج النكتة علي نحو يخدع الرقابة والقوى الكابتة المعاقبة للعدوان، ولهذا تتشابه النكتة في الصياغة والأسلوب مع الحلم الليلي والذي يعتمد علي التكثيف والنقل والتورية والرمزية.

كما أن الضحك قد يكون وسيلة يلجأ إليها الفرد ليريح نفسه من عناء الواجبات الثقيلة ويتحلل بها من الحرج الذي توقعه فيه المسئولية، كما أن الضحك – في أوقات الشدة والضيق وجسامة الاحباط– يقوم بوظيفة رفع اعتبار الذات، واستعادة– أو تأكيد– الثقة في الذات.

ولو طبقنا ما سبق علي الشعب المصري فقد شاع عنه انه شعب "ابن نكتة" أي يلجأ إلي سلاح الضحك كوسيلة للهروب من المآزق والأزمات التي تعتريه، وما أكثر الأحباطات التي مر بها شعبنا المصري.

ولذا فقد حفلت الأمثال الشعبية بالعديد من "الحكم" التي توصي الفرد (علي أساس أن المثل يعد خلاصة خبرة مجموعة من الأفراد).

باللجوء إلي سلاح الضحك في العديد من المواقف بدلا من المجابهة والتعرض للاخطار والأمثلة كثيرة نذكر منها:

- من خاف سلم.
- الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح.
- دارهم وانت في دارهم.
- علقة تفوت ولا حد يموت.
- المية ما تطلعش في العالي.
- ما حدش واخد منها حاجة.
- اجري يابن ادم جري الوحوش غير رزقك لن تحوش.
- غطي خدك وامشي قدك.
- بات مغلوب ولا تبتش غالب.
- بوس الايدين ضحك علي الدقون.
- ارقص للقرد في دولته.

وهكـــذا تتعدد الأمثال / الوصايا التي تحض الي اللجوء إلي الضحك كســلاح فعـــال في مواجهة الأزمات بدلا من مواجهتها لأن المواجهة غير مأمونة العواقب (وبات مظلوم ولا تبتش ظالم).

فأي أنواع من الضحك كان يقصده المؤلف وما هي بالضبط "التميمة" التي تنهض علي أساسها هذه القصة / الجميلة.

والقصة باختصار تتحدث عن شاب وشابة عقدا قرانهما واستمرا لمدة خمـــس ســـنوات، واجهتهما العديد من الصعاب مما حتمت عدم اكمال هذه الزيجة فاتفقا (اتفاقا انسانيا/ جنتل) علي اساس ان يتقابلا عند المأذون لإتمام إجراءات الطلاق، وطلب المأذون لاتمام الطلاق احضار شاهدين وتم الطلاق وذهب كلا منهما إلي حال سبيله.

هـنا تظهر براعة القعيد في اصطياده لحظة انسانية (لحظة الطلاق) وما تستدعيه الكلمة في النفوس من تداعيات (علي أي حال ليست سعيدة) كما أن المـرور بهـذه الخـبرة (الطلاق) يترك في النفس اثارا سيئة ناهيك عن الوصمة التي يوصم بها كل من يقدم (لظروف أو أخري) علي هذا الإجراء الديني المشروع (بالرغم من أن المولى قد جعله أبغض الحلال عند الله).

ونظـن أن الذهـاب إلي المأذون واتفاق الطرفين علي ذلك إنما كان اجـراءا رسـميا/ شـكليا/ ورقيـا يقر حالة الطلاق النفسي التي نشأت بين الطـرفين بالـرغم مـن أن الكـاتب قد نجح في أن يصور كل طرف وهو متماسك (درجة الاستعراض) بأن الأمر لا يعنيه ولذا فقد وصف القعيد الفتاة/ المـرأة وهـي فـي مكتب المأذون (كانت جالسة في مكتب المأذون قدماها تـتحركان فـي عصـبية ظاهرة، ويداها في اصفرار وجوه الموتي. ما أن شـاهدته حتي حاولت جاهدة أن تلصق ابتسامة باهتة علي شفتيها وإن تبدو سعيدة بأي صوره. (ص ٦٥)

وفـي الطـرف الأخـر الرجل ماذا فعل وصفه القعيد بعبقرية فذة "تصـرف هـو وكـأن الأمر لا يعنيه (استخدام ميكانيزم الانكار والتكوين العكسـي) بحث بعينيه عن كرسي يجلس عليه عثر علي الكرسي فاستغرق وقـتا في تنظيفه (محاولة تفريغ الطاقة في شئ ما) جلس عليه. وضع ساقا علي ساق بشكل استعراضي. وحرك قدميه بعصبية حاول اخفاءها" ص ٦٥: ٦٦.

ثـم صـور القعيد أمر الطلاق وكأنه روتين، بدا أن كل منهما ذهب لاحضار شاهد، ولكن ما سبب الطلاق بعد أن عقد قرانه عليها ولم يدخل بها منذ خمس سنوات؟

يــتهرب القعيــد من تقديم اسباب واقعية لذلك، بل "ميع" الأمر فجعل الطلاق وكأنه قدر لا مفر منه إذ يقول علي لسان البطل/ المطلق كأن الدرس الأول الــذي خرجا به هو حتمية الفراق. كم يبدو الأمر صعبا. لا يدري هو ولا تــدري هي كيف وصلا إلي ذلك. يسأل نفسه. وتسأل نفسها. ولكنهما لا يعثران علي أية إجابة. للنجاح أبواب متعددة. وللفرح الانساني أبواب كثيرة. أمــا هما فقد سدت كل الأبواب أمامهما، جملة من ثلاث كلمات: لا مفر من الفــراق، والحقيقة أنه لم يعد هناك مفر من الكلمة الجديدة التي أصبحت تقف بينهما الطلاق" (ص٦٨).

ولكــن الا يشير ما سبق إلي توجيه اتهام غير مباشر إلي الظروف الاجــتماعية الــتي جعلت شابين محبين لبعضهما البعض، ويتمنيان- وهذا حقهمــا المشروع - في تأسيس منزل للزوجية، ولكن هذا الحلم/ المشروع/ العادي/ المتكرر قد تم وءده نتيجة لقهر الواقع الاجتماعي/ الاقتصادي.

ولــذا فإن خواطر البطل (رجب عبد الله) بعد الطلاق الرسمي طفق يتساءل نحن الجيل الذي يطلق قبل أن يتزوج. طلاقنا يسبق زواجنا.

نبدأ الحياة العائلية بالطلاق فمتي حدث ذلك من قبل؟ بحث عن الحب والاشــتياق ونغمــات العشاق. والرحيل إلي ديار العشق والمحبة حاول أن يــتذكر أخر مرة اشتبكت فيهما نظراتهما فلم يفلح في ذلك. ص٧٧ في حين اصرت (رحاب/ المطلقة) علي رفض دعوي شاهدها وأصرت علي الأنفراد بالــنفس بالرغم من الحاح الشاهد الذي احضرته إلي تذكيرها بحقيقة في ليلة كهذه الانفراد بالنفس صعب.(ص ٧٥).

ولعل توجيه الاتهام إلي الواقع الاجتماعي/ الاقتصادي/ الاخلاقي قد جعل القعيد يوجه اتهاما أخر إلي "فتور العلاقات بين الناس". فهذا البطل كان يمكــنه إحضــار أحــد من اهله (ليكون شاهدا علي الطلاق) إلا أنه وجد أن

شـــقاؤه مشغولون كل في شأنه ولهذا رأي كحقيقة واقعية أن مسألة الطلاق مشكلته الشخصية (ص٦٧).

وحيـــن ذهبت رحاب إلي صديقتها المتزوجة لاحضار زوجها ليكون شـــاهدا عـــلي الطلاق لم تتأثر هذه الصديقة وإنما "تقبلت الأمر باعتباره من المســـائل الطـــبيعية، لم تكلف خاطرها أن تسألها عن ظروفها وعن إمكانية اصلاح ذات البين". (ص ٧١).

ولـــذا حين وجد أن بائع الكتب قد غير محله وانزاحت الكتب وحول محلـــه إلـــي بوتيك لبيع البضائع المهربة من غزه (سلكاوي) حتي رد بائع الكتب قائلا:

"كل ما في البلاد يتغير الأن"

حذره من الوقوف مكانه. والاكتفاء بالفرجة علي الوطن الذي يجري. حتي لا يكتشف بعد فترة من الوقت أنه أصبح من مخلفات الماضي. الذي لا يريد أحد أن يتذكره. (ص٧٠)

ولعـــل موجـــة الانفـــتاح الاقتصادي وما تلاه من تغييرات كثيرة لم تقتصر علي البناء المادي وإنما تغلغلت حتي مست وعبثت بالقيم والموروث والاعراف هو ما جعل المتابع للشخصية المصرية يلحظ العديد من التغييرات التي اصابتها لدرجة تجعلنا نتساءل بحسرة: ماذا حدث للمصريين؟ ولذا فإن الضـــحك أصبح مستحيلا أمام كل هذا اللهاث خلف الماديات وذبح الاعراف والقواده بلا رحمة.

قــــراءة نفسيــــة فى قصــــة

الأفيـــــون

ليوسف جوهر

٣- قراءة نفسية في قصة "الافيون"

ليوسف جوهر [*]

قصة "الأفيون" هي أشبه ما تكون بدراسة حالة لفتاة مثقفة وانخرطت في أدمان الأفيون، ولذا فقد ذهبت لعرض مشكلتها علي معالج نفسي، والقصة تتحدث بأسلوب السارد. مستخدمة ضمير المتكلم، وكأن الراوي قد ترك لها المجال لتقدم نفسها، وتتحدث بحرية عن أهم محطات حياتها.

وقد استطاع جوهر أن يصور باقتدار كيف أن المريضة كانت مثقفة وتسعي للعلاج النفسي فقد قالت للطبيب "أني لا أري في يدك سماعة وحجرتك خالية من أسلحة الجراحة وأجهزة الأشعة" (ص١٢٦)، ثم تتحدث المريضة عن الاعتقاد الشعبي الراسخ أن الطبيب بدون هذه الأسلحة لا يستطيع الشفاء، ولعل مدرسة التحليل النفسي في العلاج تولي فعل الكلام الأساس في الشفاء، وكيف استطاع فرويد- مؤسس مدرسة التحليل النفسي- أن يعلمنا كيف أن الكلمة تشفي وتسعد في نفس الآن.

كما أن هناك العديد من الاسس التي ينهض عليها العلاج النفس خاصة ضرورة الاخذ بعين الاعتبار مدي دافعية المريض للعلاج وأن مجرد حضور الشخص بفسه طالب العلاج يفرقه من مريض نفس أخر أحضره أخرون للعلاج (المريض النفسي يأتي من تلقاء ذاته لان مازال مرتبطا بالواقع عكس الحال في المريض العقلي أو الذهاني والذي انفصل عن الواقع).

---

[*] يوسف جوهر: أمهات لم يلدن ابدا كتاب اليوم، العدد ٣٥، ابريل ١٩٧١، القصة من ص ١٢٦: ١٣٩.

وإذا كان الأمر كذلك في الأمراض النفسية فإن الاهتمام بدافعية المريض في علاج الأدمان يعد من أخطر العوامل التي تمكن المعالج من مدي التنبؤ بمسار المرض، ذلك لأن لجوء المريض إلي المخدر إنما يشبع لديه احتياجا نفسيا معينا، وهنا نهضت العديد من الدراسات التي حاولت سبر أغوار مدمن كل عقار، علي أساس أن الخمر تظهر في الأفراد ذوات النزعة العدوانية والحشيش يساعد علي التخدير واللامبالاة والافيون يساعد علي الإنطواء واجترار مشاعر الذات، والحبوب النفسية المختلفة يلجأ إليها المدمن يصدق إحداث تغييرات في نفسيته وتكون مقصودة وهل يلجأ إلي الحبوب المنشطة أم المنومة ام المهلوسة التي تساعده علي الهلوسة وتخيل عالم جديد ودراسة الحالة التي قدمها لنا جوهر تتعرض باختصار لحالة مريضة تلقت قدرا كبير من التعليم. وكان والدها نجار سواقي (محدود القيمة وبالتالي المال) واحبت شابا قرويا معها كان في كلية الطب وفي قطار العودة خرج القطار من القضبان بفعل الأرض اللزجة الناتجة من كثرة الامطار، ونشأ الحب بين الحاله وفتاها، وفي صباح اليوم التالي قتل أحمد، ثم أرغمت علي الزواج من العمدة والذي كان يجلس في الدور الأرضي "يحشش" ثم بعد ذلك يصعد إليها ليلتهم الطعام وجسدها معاً، وفي إحدي الليالي تناهي الي سمعها أن زوجها هو الذي دبر لقتل أحمد وهنا لم تتمالك نفسها فشربت معه الجوزه بالحشيشة ثم أخذت قطعه من الأفيون ونهضت تستحلبه لأنها كانت تريد أن تغيب عن الوعي ثم أرسلت خطاب مجهولا إلي عائلة أحمد تخبرهم فيه أن العمدة هو الذي قتل أحمد ووجدت في ليلتها العمدة مطعونا عدة طعنات واخذة تولول وتبكي ليس حزنا علي العمدة وإنما علي حبيبها الذي قتل وحاولت أن تتخلص من الجنين حتي لا يذكرها بالعمدة، وورثت تسعين فدانا،

ثم تركت القرية وحضرت إلي المدينة و اشترت بالمال كل شئ الا النسيان، واندمجت أكثر في المخدر لكي يعطيها الغيبوبة الطويلة، ويشل تفكيرها، واستمرت علي هذا المنوال عشر سنوات، ثم ضاقت بعملية ادمان المخدرات وأتت إلي الطبيب تنشد العلاج. بالرغم من تشككها في ذلك.

وبنظرة ثاقبة يوضح لنا جوهر حقيقة الصراع الذي ينشب داخل المريض يبين أن يستمر في المخدر (بكل ما يجره إليه من أضرار ثم في النهاية يكتشف أن اللجوء إلي المخدر بهدف النسيان والغيبوبة وشل التفكير لم يقم بالمهمة المطلوبة وهنا يلجأ إلي زيادة الجرعة ثم مع الأيام تقل فاعليتها وعموما استطاع علماء النفس المهتمين بعالم المخدرات تحديد عددا من العوامل يتم بناءا علي أساسها معرفة ما إذا كان الشخص قد دخل مرحلة الإدمان أم لا. وهذه المعايير تتلخص في :-

١- الميل إلي زيادة الجرعة المتعاطاة وهو ما يعرف باسم التحمل Tolerqnce ويعني حدوث تغير عضوي يتجه نحو زيادة جرعة مادة محدثة للإدمان بهدف الحصول علي نفس الأثر الذي أمكن الاحساس به من قبل من خلال جرعة أقل.

٢- اعتماد علي المادة المخدرة ويكون له علامات فسيولوجية واضحة حيث يشعر وكأن المخدر هو "الوقود/ البنزين" الذي يحرك اجهزته ونشاطاته.

٣- حالة تسمم عابرة أو مزمنة وهي عبارة عن حالة تعقب حدوث تناول إحدي المواد المخدرة وتنطوى علي اضطرابات في مستوي الشعور والتعرف والإدراك والوجدان والسلوك بوجه عام، وترتبط هذه الأثار بالآثار الفارماكولوجية (الدوائية) الحادة للمادة النفسية المتعاطاة.

٤- رغبة قهرية قد ترغم المدمن علي محاولة الحصول علي المادة النفسية المطلوبة بأي وسيلة، حيث يجد المدمن نفسه مضطرا إلي درجة الارغام علي البحث والحصول علي المخدر بأي طريق ويمكن أن يسرق أو يقتل

بهدف توفير المادة المخدرة، أو كما كان يصف لي الكثير من المرضي المدمنين أنهم كانوا يشعرون وكأنه يوجد فجوة فارغة في أدمغتهم، هذه الفجوة لا يسددها ولا يملئها إلا تناول المخدر، ولذا فإن المخدر يكمل حياته، ولهذا فهو مضطر إلي ارتكاب الي فصل اي سلوك يهدف للحصول علي المخدر.

٥- تأثير مدمر علي الفرد والمجتمع، رغم أن المدمن يعي جيدا اضرار المخدرات عليه (من كافة النواحي إلا أنه مضطر إلي الاستمرار) بل أن المعالجين في مجال الإدمان يوضحون البون الشاسع بين ما يقوله المريض نظريا وبين ما يقوم به فعليا.

إضافة إلي حالة الصراع النفسي العنيف وميكانيزمات الدفاع المستخدمة مثل الأنكار والاسقاط، والتكوين العكسي والقلب وغيرها من الأساليب التي يتسلح بها المدمن لكي يستمر في الأدمان. وقد عمدت مريضة جوهر من ذلك قائلة "عشر سنين أيها الطبيب وأنا عبدة للمخدر أغضب عليه في الصباح وأضرع إليه في الضحي وكأنه عاشق نزل وهبته حياتي" (ص ١٣٩). وهذا هو الواقع فعلا في مجال تعامل المريض مع المخدر، وهذا هو أيضا السبب في زيادة حالات الانتكاس (أي الردة إلي المخدر بعد المرور بتجربه العلاج) نتيجة لان عوامل الضعف النفسي وتفتت الإرادة، والوهم الذي يصوره المدمن لنفسه حين يواجه أي احباط بأن المخدر قادر علي ذلك.

ومريضة جوهر كانت لا تشذ عن أي مد من مخدرات، حيث أنها حين سمعت مصادفة أن زوجها هو قاتل حبيبها ولذا حين عرفت أن زوجها هو القاتل وأعترف لها بذلك تقول "بدلا من أن أختنقة مددت اصابعي الي القصبة التي يدخنها ولأول مرة وضعتها علي فمي واستنشقت دخانها المعطر وهو في حيرة من أمرى فطالما حاول أن يغريني بمشاركته ولكني

عصيته... وكنت في حاجة إلي أن أغيب عن وعي لكي أقوي علي البقاء مع قاتل أحمد في حجرة واحدة وفي فراش واحد. ص ١٣٨

ولعـل أهـم مـا يميـز فئة المدمنين هو ضعف القدرة علي تحمل الإحـباط، والانهيـار الكامل حين يواجه أي خطر، فيتصور أن المخدر به الأمان والمخرج والمهرب من الإحباط / المشكلة. ورغم أن البعض يعي من خـلال تجربته مع الإدمان، أن الإدمان لا يفيد بل علي العكس قد يساهم في زيـادة مشـاكله (حيـث يضـيف إلي مشكلته الأصلية مشكلة أخري جديدة ومعرفـته إلا أنـه يستمر في استحلاب هذا المخدر لانه لا يعي طريقا أخر وهو علي كل حال سلوك طفل/ اعتمادي، فالطفل حين كان يواجه أي إحباط كـان يـركض مسرعاً إلي الأم أو الأب لحمايته، فإن الوضع في المدمن أن يركض إلي المخدر لحمايته والتكفل بحل مشاكله، وشقان بين أحضان الأم في الطفولة وأحضان المخدر في المراحل التالية.

ولعل الصيغة العامة لنظرية التحليل النفسي في نشأة الاضطراب (قد يكون اضطرابات السلوك أو النفس أو العقل أو التفكير) تكون كالآتي: إحباط لا يقـوي الراشد علي مواجهة أثاره النفسية بحل واقعي مناسب سواء أكان ذلـك نـتيجة لضخامة الإحباط، أو لاستعداد نشوئي قوامه عدم القدرة علي احـتمال الإحـباط والأغلب أن يكون ذلك مزيجا من العاملين، وتؤدي نتائج الإحـباط الصدمي للنفس إلي توتر يؤدي بدوره إلي النكوص إلي انماط من السلوك تميز مراحل الطفولة خلاصا من الموقف المحبط.

وإذا كان الإدمان هو هروبا من احباط واكتئاب راهن وخلق عالم من الفرفشـة أي حالة من الهوس. فإن الأساس في ذلك هو الارتداد إلي مرحلة عشـق الذات. ولا نزاع الان في أن الحاجات الفمية لدي الرضيع واحباطها ومـا يـترتب عليه من خبرات اليمة، تنطوى علي أهمية حاسمة في الصحة النفسـية ومـا يعـتريها مـن أختلال أو توافق قابل حياة الفرد، وتظل هذه

الأساليب الفمية مترسية في اللاشعور لدي الراشد وتظهر في الأحلام والأمراض النفسية والعقلية.

بل وجدت العديد من الدراسات التي تناولت ديناميات المدمن أن الرجولة والشهامة والفحولة من السمات التي يحاول المدمن أن يبرزها دائما إلا أنها في حقيقة الأمر سمات تخفي أعتماده الطفلي علي الأم وعلي المراحل المبكرة من نموه النفسي، إذ أن طلاقه القدرة المطلقة للمشاعر التدميرية وللمشاعر الطيبة علي السواء من الخصائص المميزة للمرحلة المبكرة من النمو النفسي، كما أنها عامل اساسي في فاعلية عمليات التدمير وكذلك في عمليات الانكار الهلوسي.

<u>والسؤال الذي نطرحه الأن هو:</u> أن المجتمع – خاصة المجتمع المصري- يتقبل أن يدمن الرجل ولكن أن تدمن المرأة فهذا أمر شاذ ومرفوض لأن صورة المرأة أو الفتاة- والتي أستقرت في الوعي والراهن واللاشعور- انها خانعة/ سالبة/ مستسلمة ولا تقوي علي القيام بأي سلوك لا إجتماعي.

ولكن بعض الدراسات التي تناولت إدمان الأنثي في المجتمع المصري (وهي علي أي حال دراسات قليلة) قد وجدت أن إدمان الفتيات أو النساء ما هو إلا صورة للتمرد علي السلطة وعلي المعايير الاجتماعية الظالمة/ الحارمة لها من نيل حقوقها وحريتها كأنسان بغض النظر من كونها أنثي وهذا هو الحادث فعلا في "الحالة" التي قدمها جوهر حيث أن والدها ارغمها "بالضرب والسب والتهديد والحبس" علي ضرورة الاقتران بالعمدة لأنه شرف له ولها، ناهيك عن الفوائد المالية التي سيجنونها من وراء هذه الزيجة، ضارب بكل توسلاتها وعاطفتها ورأيها وارادتها عرض الحائط.

ولذا – وبعض النظر عن الجنس- فقد وجدت الدراسات التي تناولت فئات الادمان المختلفة وبغض النظر عن نوع المخدر أن العامل المشترك

للادمـــان هو اضطراب الوجوه وفقدان الدفـء العاطفي، ولذا فإن المخدر – هكـــذا يـــتوهم المدمن – يساعده في استعادة هذا التوافق المفقود واصلاح ما يمكن اصلاحه، اضافة إلي أن المدمن انسان ضعيف، غير قادر علي مواجهة الآخرين، ولذا فإن عدوانه يرتد الي ذاته (بدلا من أن أدمر الاخرين واستثير فيهـم عدوانيتهم ضدى فأنتي أدمر ذاتي – ونفسي وأنا حر فيها (وهي مقولة ســمعتها كـــثيرا من المدمنين وكانوا يقولونها بمنتهي الصدق متعجبين من موقـــف اسرتهم ومن لهفتهم علي ضرورة علاجهم، وأن المدمن حين يدمن فإن المخدر يضرنـي أنا وليس الآخر– ورغم أن هذا الاعتقاد يحتاج إلي كثير مـــن تداخـــل الأســـاليب العلاجية للتعامل معه، ومحاولة استبصار المريض بنفســيته، وبـــنقاط ضـــعفه. إلا أن المقام يضيق هنا عن التعرض لمثل هذه الأساليب.

وإن كـــنا في عجالة نقول أن علاج الأدمان يحتاج إلي تدخل فريق علاجـــي كـــامل، مـــثل الطـــبيب النفسي، والاخصائي النفسي، والاخصائي الاجتماعي، والمرشد الديني، وتدخل الأسرة وتقديم ما يسمي بالعلاج الأسرى وأن تـــتفهم الأسرة طبيعة مرض ابنها، وكيف أن مرض الإدمان يختلف عن باقي الأمراض الأخرى حيث لا توجد له علامات واضحة– وإن كانت هناك العديـــد مـــن العلامات المنذرة والتي تستطيع الأسرة أن تتفهم وتسعي ما إذا كـــان الإبـــن قـــد دخل في مرحلة الإدمان– وفي أي عمق أم أن هناك من المؤشـــرات مـــا ينبئ بقرب ارتداد او انتكاس الابن إلي الادمان بعد المرور بخبرة العلاج.

وعمومـــا فهـــي علامات لا تستطيع الاسرة أن تعيها إلا من خلالها الوعـــي والتـــثقيف النفسي والصحي ومن خلال علاقة وثيقة بالمعالج وعدم لجوء الاسرة إلي أساليب الانكار (لا يوجد أحد في اسره مدمن حتي الا ينظر إليه الأخرون نظرة احتقار) كما لا نوافق علي أسلوب اللامبالاة والاهمال أو

الحمايـــة الزائدة والمراقبة، أو التدليل المفرط وتلبية كافة طلبات الابن لأنها عوامـــل تساعد علي ولوج الأبن إلي عالم المخدرات، ومن اساسيات الصحة النفســية أن نعــود أطفالـــنا علي قدر يسير من الاحباط حتي نكسبهم القدر الضـــروري واللازم للمرور بهذه الخبرة الانسانية الضرورية الحتمية، حتي إذا واجه في مقتبل حياته احباطا يكون لديه الاساس السابق في مواجهة مثل هـــذه الأمور، ويكون قادرا -من خلال خبراته السابقة وأفكاره ومقترحاته- علي عبور هذه الأزمة الحياتية اليومية كثيرة التكرار لأنها من صميم الحياة والوجود الإنساني.

كمـــا أن عـــلاج الإدمـــان يحتاج إلي وقت طويل- مثله مثل علاج الأمـــراض النفســـية والعقــلية - حيث يكون الخلل غير عضوي بل يتعامل الفـــريق العلاجـــي مع ما يسمي بالاشتياق النفسي وهو حالة اللهفة والغيبوبة والقهـــر الـــذي يجـــد المدمن نفسه مضطرا إلي الدخول إلي عالم المخدرات خلاصـــا من الإحباط أو للحصول علي اللذة الوقتيه لدي المريض للحضور ولاســـتمرار العلاج، وان تكون هذه الرغبة نابعة من داخله ومقتنع بها حتي تسير إجراءات العلاج بسرعة وفاعلية. أما ان يحضر المريض المدمن قسرا أو يحضـــر ارضاءا لأسرته أو لمجتمعه أو حتي مدفوعا من جهه عمله فإن العملية العلاجية تكون محكوم عليها بالفشل لأننا لا نستطيع أن ننصب رقيبا يتابع تحركات المدمن عبر الساعات الأربع والعشرين.

وما كانت لتكون كل هذه القراءات النفسية بدون الحالة الإنسانية التي أوردهـــا جوهر في قصة الأفيون وترك لها المجال مستخدما تكنيك التداعي الحـــر الطـــليق فـــي عرض مشكلتها علي المعالج النفسي والتي ذهبت إليه ليخلصها من الإدمان.

قــــراءة نفسيـــة فى قصـــة

ستـر العــورة

لسعيد الكفراوى

٤- قراءة نفسية في قصة ستر العورة

لسعيد الكفراوي[*]

فـــي "ستر العورة" يحاول سعيد الكفراوي الاقتراب من سيكولوجية الفـــلاح المصـــري في علاقاته الحميمة مع "الحيوانات" التي يعتمد عليها في إدارة حياته. وتبرز "الجاموسة" كقيمة عالية وغالية بالنسبة للفلاح المصري. فهـــو يعـــتمد عليها في إمداده باللبن وما ينشأ عنه من صناعات اخرى مثل: الجـــبن والقشـــدة والـــزبد أو حتي المش ... وغيرها ... وكل هذه المظاهر تـــتكون وتفـــرز مـــن ضرع الجاموسة، إضافة إلي أنها تلد أو حتي قد تباع لتســـتبدل بغيرها، هذه العلاقة بين الفلاح والجاموسة علاقة تكاد تقترب من العلاقـــة الانسانية، والاعتماد الكامل عليها، مما يجعل مغامرة بيع الجاموسة (دون استبدال) أو سرقتها طامة كبري قد تفقد الإنسان صوابه، أو توازنه، بل وتســـاهم في نقله من فئة "الاسوياء" إلي فئة " غير الاسوياء" مثلما كانت من قبل قد ساهمت في حراكه الطبقي من فئة "المعدمين" إلي فئة "الملاك"، ولعل معيـــار "امتلاك" الارض وامتلاك عدد من المواشي يعد من أهم المعايير في الـــريف المصـــري عـــلي مكانـــة الفلاح وقيمته او ما يترتب علي ذلك من تغييرات.

وقد نجح الكفراوي في تصوير هذا المشهد إلي حدا ما. وتبدأ الرؤية بوجـــود أختلاف في وجهة النظر بين الزوجة "رحمة" وزوجها "الصفطي" إذ تري رحمة أن "البهيمة" تستر عورتهم وأن "البهيمة" خير وبركة وورشة لبنها تملئ العين وتسر الخاطر، فاتحة البيت، وطاعمة للعيال" (ص١٦). في حين أن الـــزوج يـــري أن "الجاموسة شاخت وعجزت وقرنها لافف مثل الحواية علي رأسها ومن يوم ما فطس ابنها او أنا متشائم. قلت أبيعها وأشتري بهيمة

---

[*] سعيد الكفراوي (١٩٨٩) ستر العورة- مختارات فصول (العدد ٦٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ص ١٠٣ - ١٤٤.

وراءها عجل أو علي الأقل عشر" (ص١٦). ومع احتدام الخلاف في وجهات النظر بين الرجل وزوجة، إلا أنه أصر علي تنفيذ كلامه دون الاستماع إلي منطق الزوجة لأن الخبرات التي تلقاها ابان فترة التنشئة الاجتماعية زودته بمعيار أنه رجل، ولا بد أن يفرض كلامه، وعيب جدا أن يسمح للزوجة/ المرأة بأنه "تمشي" كلامها وتفرضه عليه" ولذا حين استيقظ قبيل الفجر، وبعد اداء صلاة الفجر، دخل الزريبة لكي يفك الجاموسة ويتوجه بها إلي السوق، وحين شعرت زوجة بذلك منعته إلي أنه لطمها فصرخت فاجتمع نفر من الجيران لفض هذا الاشتباك، وكالعادة انحاز الرجال إلي رأي الصفطي، والذي توجه بالجاموسة لبيعها في سوق الثلاثاء.

إلي هنا والأمر جد عادى. اختلاف في وجهة النظر حول قيمة الجاموسة، انتهت بترجيح أو فرض الرأي في بيعها واستبدالها بأخرى، بيد أن الطامة الكبرى وتصاعد ذروة الاحداث تكون في السوق. إذ في العادة يلتف حوله مجموعة من التجار والسماسرة، وفي مثل هذا الموقف يبدأ الشد والجذب والصعود تدريجيا بالسعر مع مخالطة ذلك بكلمات دينية، إلا أن "الصفطي" كان يرفض البيع متعللا أن هذا المبلغ لا يساوي نصف ثمنها، وهنا يثور تساؤل: هل كان الصفطي في قرارة نفسه يرفض بيع الجاموسة، ويتبني – ولو لا شعوريا– وجهة نظر زوجة في أن الجاموسة خير وبركة، وانه ببيعها "سيزن علي خراب عشه"؟ وهل الحياء منعه من الاستجابة لرأي الزوجة حتي لا يقال عنه – او هو يري نفسه كذلك – أنه يسمع كلام المرأة؟ ولعل هذا التردد وعدم الجدية في حسم الامر بالبيع (وفقا لاسعار البيع في ذلك اليوم) أو ترك السوق ومعاودة الكرة في السوق – أو الأسواق– القادمة، كل ذلك قد أعطي اشارة ذات دلالة للتجار أن "الصفطي" لن يبيع، وهو في نفس الوقت متردد في الخروج والعودة بالجاموسة إلي البيت، كل ذلك ونتيجة لمعاركتهم وفهمهم لنفسية "المشتري" قد جعلهم يحبكون تمثيلية للشراء،

وقــاموا بفــك الجاموســة وحيــن انفضت الدائرة البشرية التي احاطت به للمساومة ورجع إلي مربط الجاموسة لم يجدها كأنها فص ملح وذاب. صرخ بعزم عزمه. البهيمة يا ناس، البهيمة كانت مربوطة هنا (ص ١١٥)، وانتابته ثورة من الانفعال إذ أخذ يجري هنا وهناك ويمسك بتلابيب الخلق. ينظر في الوجــوه يصــرخ: شــايا وشــقا عيالي (ص١١٦). فقد الإحساس بالأمان والــتوافق. يريد البكاء ولكنه يخشي أن يكون أو يبدو ضعيفا أمام الآخرين، ويشهدون علي ضعفه.

اســتطاع أن ينزع نفسه من دوامة الالم، ويذهب إلي نقطة الشرطة التابعة للسوق، ويحرر محضرا بالواقعة. مجرد روتين وطريق طويل، علمته الخبرة أنه غير مفيد، لكن عليه أن "يأخذ بالأسباب". ولكن بعد أن أنفض اليوم وتــأكد أن الــنهار راح، خرج من السوق قافلا صوب داره وقريته، مكسور الجــناح. ولعــل مــن العوامل التي زادت من بؤرة الاحباط لديه هو موقف الزوجة... تلك التي كانت رافضة- وعلي طول الخط بيع الجاموسه، وأعلنت أيهــا وتحملت مسئوليتة (من ضرب الزوج لها)، إلا أن الزوجة حين علمت بالواقعــة/ الفاجعة/ الطامة الكبرى لم تظهر أي شماته أو تبكيت بل قالت له مواســيه يعوض عليك صاحب العوض. مقدر ومكتوب، وأنت ولا يهمك يا اخويــا والجاموسة في ضغرك وما دمت بصحتك خيرها في غيرها، والامر لصاحب الامر (ص ١١٧)

كــلمات المواســاة هذه كانت تطلقها رحمة لزوجها، لكي لا تخسره مثلما خسرت الجاموسة، وإن الرجل (مهما كان) هو سترها وظلها والعامود الــذي تــتكأ عليه في مواجهة المحن والآلام وتقلبات الدهر. قاومت الزوجة رغــبة جارفة في البكاء والعويل والتعديد بالضياع والفقد، إلا أنها لم تستطع أن تقــاوم دموعها التي أريقت غصب ، هي تدخل الزريبة لكي ترتب أرض الزريبة بالتراب وحين لمحت مكان الجاموسة الخالي. ولكن المأساة الفردية/

الذاتيـــة لم يقف تأثيرها واضرارها عند هذا الحد. إذ أخذ الخبر يتناقله الناس "الصـــفطي تعـــرض لمحاولة نصب في السوق وسرقة جاموسته" ولعل هذا "المعيـــار الاجتماعي" يكن أشد قسوة علي النفس لأنه حكم الجماعة علي أحد أفـــرادها أنـــه "ساذج/ سهل النصب عليه" ويصبح ذلك وصمة عار تلاحقه- وربمـــا تلاحق اولاده طوال العمر. لكن البعض حاول مواساته وذهبوا معه "الثلاثاء" التالي إلي السوق في محاولة مستميتة منهم علي معرفة أي خبر عن الجاموســة الـــتي ضـــاعت، او الاحتكاك برجال الحلب المشهورين بسرقة البهائم، بيد أن التحريات ضاعت بلا جدوي، ولم يبق إلا الذهاب مرة أخرى إلـــي "نقطة الشرطة".. بالرغم من الذكريات المؤلمة، والميراث الطويل من التشكك حيال نواياهم. فعمر الفلاح الطويل علي الأرض جعله يعلم ضرورة التشـــكك في نوايا رجال السلطة، وكيف له أن يتصور غير ذلك وخبرته قد علمته أن "المأمور والصراف ومندوب الجهادية ووكيل النيابة، ومن اليهم من رجـــال السلطة الذين ساموا الفلاح سوء العذاب، ليس غريبا والأمر هكذا أن يتشكك وأن يتسلح بالحذر، بل الأفضل أن يتجنب الاحتكاك بالسلطة ورجالها ولكـــن "لابد مما ليس منه بد"، لكن "الصفطي والرجال" لم يجدوا من الضابط أي اهتمام. فالجاموسة قد تم عمل محضر ولم تسفر التحريات عن ضبط أو الافـــادة بـــأي شئ، والأمور هادئة بيد أن قيمة الجاموسة وضياع ذلك عند "الصـــفطي" له مدلولات غير تلك التي عند الضابط، حيث اعتاد وتعود علي مـــثل هذه الأمور فما كان من الصفطي إلا أن دخل في مشاجرة مع الضابط وســـط دهشة والتياع بلدياته. فما كان من الضابط إلا أنه نهض واقفا وهوي علي صدغه وسبه، إلا أن الصفطي (ومن منطلق خسران خسران وليس بعد فقـــد الجاموسة أي احساس بالقيمة) لم يصمت أو يخضع، بل أندفع في ثورة ضـــد الضابط (السلطة ووصل في اتهاماته إلي درجة أن السلطة متوطئة مع الحرمية) فما كان من الضابط الا أن اشار إلي الخفر ، وإنهالوا عليه ضربا

بالدبشــك حــتي سقط مضرجا في دمه وسط دهشة واسترحام بلدياته، وازاء الضــرب هــذا اضــطر الصفطي أن يعترف بقهر الواقع "خلاص يا بيه.. خلاص" (ص١٢٣)، ولعل هذا الموقف ودلالته يعد بكل المقاييس خارج عن المألوف ويستحق قراءة متأنية. فالفلاح عبر العصور تعلم ضرورة الاعتماد علي السلطة وإطاعة أوامرها، لأنه كان يعتمد عليها في تنظيم الري وكميته وتحديــد المحاصــيل الــتي تــزرع أو لا تزرع. ولقد علمت الخبرة الفلاح المصري أمرين او قاعدتين ذهبيتين في التعامل مع السلطة وهما:-

القاعدة الأولي: تجنب الاحتكاك بالسلطة قدر الامكان، وإذا (حكمت) الأمــور ذلــك فليكن بأقل قدر، ويستحسن في هذه الحالة النادرة والقليلة من الاحتكاك- التسلح بميكانزم الانكار Denial حتي يتخلص من الموقف سريعا، ويعــود إلي جماعته إذ أن الخبرة الضاربة بجذورها في أعماق آلاف السنين قد علمته ضرورة الالتزام بهذه القاعدة والتي لا تخطأ.

القــاعدة الــثانية: المــبالغة في نفاق السلطة حتي يتم التخلص من الموقــف وبسرعة، ولذا ظهر المثل الشعبي الذي نحته الفلاح المصري من عصــارة خبرته وقهره مع السلطة "الايد اللي ما تقدر تعضها بوسها"، ولما كــان الفــلاح يــدرك بفطرته أنه لا يستطيع أبدا مواجهة السلطة والتصدي لــتجاوزاتها فــإن اللجوء إلي وسيلة تقبيل اليد هي أيضا قاعدة ذهبية توصل إليها الفلاح المصري، ولما مانع ايضا من اظهار "تحقير الذات" واننا فلاحون لا نعرف شيئا، وأن الحكومة تعرف "دبة النملة".. مثل هذا الكلام إنما يشير إلي أمرين:-

الأول: سمة نفاق السلطة حتي "تأخذ في نفسها قلم" وتغتر وتترك الفلاح.

الــثاني" ظاهــريا تحقير الذات أمام الآخرين / السلطة ثم السخرية منهم بعد ذلك، لأن الفلاح يعلم أن السلطة واستمرارها لا يصدقه الواقع.

ولعل التسلح بهاتين القاعدتين قد استطاع الفلاح المصري- وبالمناسبة غالبية الشعب المصري له جذور فلاحين/ قروية/ ريفية حتي وأن كانوا من قاطني المدن – أن يتعايش مع الأجانب والغزاه والمحتلين وحتي في حالات تجاوزات السلطة بصورة غير معقولة.

ولعل جرءة – أو قل تهور الصفطي- مع السلطة قد جعل قضيته تنقل من حالة الفردية/ الخاصة إلي حالة الجماعية، وأصبح مُدينا من وجهة نظر الجميع إلي أمرين:-

الأول: سرقة الجاموسة ودلالات ذلك في الوعي الجمعي.

الثاني: تعرضه للضرب والسب واهدار كرامته امام نفسه وامام بلدياته من قبل ضابط النقطة/ السلطة. ولذا فقد عبر الكفراوي عن هذين الموقفين في عبارة نحتها نحتا وهي أقرب إلي الموال الحزين والذي يلخص أزمة الصفطي بعد سرقة وضياع جاموسته واهدار كرامته.

"قهروه يا نضري وكسروا شوكته" ص ١٢٣

"ضاع حلاله منه، وضاعت كرامته"

هذين الموقفين من الاحباط اللذين تعرضا لهما الصفطي قد أفقداه توازنه، إذ لم يعد يلقي علي أحد السلام أو حتي يرد السلام بل ودخل في مرحلة الهزاءات وسماع أصوات تأتيه من الخارج "الحق يا صفطي بهيمتك" ص١٢٥. وقد شاهدت ولمست زوجة مثل هذه التغييرات فحاولت مواساته وانتشاله بالكلام والفعل إلا أنه كان قد قطع شوطا – ولا ينوي العودة- في مسار عدم التوافق مع النفس ومع الآخرين.

فالكلام: قالت له حكمة الفلاح المصري في مواجهة الشدائد "<u>الذي لا تستطيع علاجه يا صفطي تحمله</u>" ص ١٢٤، إلا أنه لا يستطيع لا العلاج ولا حتي تحمل الاحباط Frustration.

والفعل: فقد أبرز الكفراوي موقفين للزوجة:-

الموقف الأول: محاولة الزوجة الدؤب في خروج زوجها من الأزمة بمحاولة اثارته جنسيا، إذ كانت تتهيأ لذلك بكافة الطرق إلا أنها كانت لا تجد إلا الصد والنوم واللامبالاة (من ص ١٢٦ : ١٢٩).

الموقف الثاني: الذهاب به إلي ساحر أو عراف أو دجال من ممارسي العلاج النفسي الشعبي في الريف، وكانت شكواها للرجل المعالج أن زوجها "تناديه أصوات وتقلق راحته. ستري وستر عيالي في الزمن الصعب" ص١٣٤. ورغم أن المعالج النفسي الطبي حاول قدر الامكان التهوين من هذه الأعراض "ومن منا لا يسمع اصوات تناديه حتي الموتي نسمع اصواتهم" ص ١٣٤ إلا أن الزوجة كانت تخشي من أن يضف زوجها أو يشخص في قائمة "الخبل وفقدان العقل" ص ١٣٤. وحاول المعالج – كعادته– وصف العلاج بما يتوافق مع تخصصه، إلا أن ذلك لم يفيد لا علي المدى الطويل ولا حتي القصير.

واستمر الصفطي في حالة التدهور، فزاد معدل سماعة للاصوات التي تخبره أن "يلحق جاموسته"، ولعل سماع الأصوات دون أن يكون لها وجود في الواقع تندرج تحت فئة الهلاوس Hallucanation وتعني إدراك لمثيرات غير موجودة سواء كانت سمعية أو بصرية، وكثيرا ما تكون تلك الهلاوس واضحة بحيث لا الشخص المريض الريف زيفها فيستجيب إليها كما هو الحال في الفصام الهذائي.

وفي نفس الوقت لازمت هذه الاعراض ظهور عادة جديدة إلا وهي شرب البوظة حتي يسكر وينسي لكن اللجوء إلي الإدمان كحل أو كمهرب في مواجهة مشكلة ما لا يحل المشكلة بقدر ما يزيدها تعقيدا، وهنا تظهر مشكلتين، او كما تسمي في علم النفس: قضية التشخيص المزدوج DoulDiagnosis أي وجود مشكلة نفسية أو اضطراب نفسي (مثل الهلاوس والهزاءات) مع مشكلة الادمان كحل ذاتي لمواجهة المشكلة، وايهما يسبق

الاخر هل الادمان أم الاضطراب النفسي؟ في الواقع تضاربت الآراء في هذا الأمـــر، وان كان الواقع يؤكدان الادمان يمكن أن يسبق أو يصاحب أو يكون نـــتيجة للمرض النفسي أو العقلي أو الاضطراب الكامن – كما هو الحال في "صفطي"، بيد أن اللجوء إلي الإدمان كحل ذاتي، أو حتي اللجوء إلي الأدوية المهدئـــة– ومـــا دام الأمر بعيدا عن السيطرة الطبية فإن الأمور تزداد سوءاً وتدهوراً ولابد مما ليس منه بد أن يصدم القطار الصفطي ويموت قتيلا أثناء عبوره عائدا من البوظة كالطين. مسطولا مشوشا يحاول قدر طاقته أن يعالج ذاتيا الجروح النازفة داخله.

وتواجـــه الـــزوجة الحياة بعد ضياع الجاموسة (ستر البيت) وضياع الـــزوج (ســـترها وســـتر اولادها)، اضطرت الزوجة أن تواجه الواقع بكل احـــباطاته، فرغم أن أساليب التنشئة الاجتماعية Socialization في الريف– عمومـــا– تحمل الرجل المسئولية. وان المرأة مجرد تابع ومطيع وتدور في فـــلك الزوج (الرجل)، إلا أن "رحمه" اظهرت توافقا نفسيا في مواجهة الواقع ووفق متطلباته.

وفـــي نهاية القصة يصور الكفراوي موقفا انسانيا يتجلي في ظهور الصفطي– بعد مقتله– في حلم الزوجة وأنه يدخل إلي الزريبة أو يقف وسط الدار، وأنه يحل مكان النعجتين والحمار ويهشهم خارج الدار، وحين تستيقظ تســـتعيذ بالله بل وتطلب من الصفطي "ان يتركهم في حالهم وحرام ما يفعله بهم" ص ١٤٤. ولعل الحلم وتداعياته، وكذا التفكير والانشغال بالموتي وإن ارواحهـــم لا تفـــارق الـــدار – علي الاقل حتي الاربعين – من المأثورات الشعبية ذات الثقل الاعتقادى الكبير في ميراث الشعب المصري.

قـــراءة نفسيـــة فى قصـــة

فى رواية "بيع نفس بشرية"

لمحمد المنسى قنديل

٥- قراءة نفسية في رواية بيع نفس بشرية

محمد المنسى قنديل[*]

في رائعته بيع نفس بشرية (من ص ٨: ٥١)، يلجأ الكاتب إلي تقديم الـــرواية فـــي نفس واحد. دون الالتزام بالتقسيم إلي الفصول أو حتي وضع نقـــاط ســـميكة بيـــن كل مقطع ومقطع اخر لكي يتيح للقارئ فرصة لالتقاط الانفـــاس واســـتيعاب للاحداث. واظن أنه عمد إلي طريقة السرد هذه حتي يشـــعر القـــارئ بخطورة الحدث، وان يلهث وراء الاحداث حتي يقف علي النهاية وما أبشع لحظة الوصول إلي النهاية.

والـــرواية أو أن شـــئت القصـــة تتحدث بإختصار عن مدرس اللغة الإنجـــليزية "مصطفي" والذي سافر إعارة إلي احدي دول الخليج ويعاني من الغـــربة والوحـــدة وهناك يفاجئ بفتاة فليبينية غريبة تستجير به أن يساعدها ويحميها وكانت فعلا في حالة يرثي لها وجسدها – خاصة ساقيها– بهما أثار لجروح شديدة تنزف منهما الدماء، ورغم الخوف إلا أنه حاول مساعدتها، بل بقيـــت فـــي غرفـــته لمدة ثلاثة أيام، عرف خلالها قصتها وهي أنها خادمة وعشـــيقة غضـــباً لأحد المشايخ المهمين في هذه المدينة الخليجية، ورغم أن أتصـــل بأحد معارفها وأعطاه العنوان إلا أنه لم يصل لمساعدتها أي أحد، ثم كان أن استدعاه الشيخ، وذهب إليه في قصره مع صالح (مدرس الشريعة ابن هـــذه المدينة)، وهناك شاهد فيلما يعرض علي شاشة يصور العلاقة الجنسية التي كانت قد نشأت أمس بينه وبين "ماتيلدا" وأن الشيخ كان يعرض عليه – فـــي نفس الأن– أن يأتي إلي قصره كي يعطي أبنه الوحيد "جاسم" درسا في الـــلغة الإنجـــليزية، وهنا لم يجد مفرا الا الاعتراف للشيخ بأنه يعرف مكان ماتيلدا، إلا أن الشيخ أشاح بيده، بلا مبالاة وهو يقول:–

---

[*] محمد المنسي قنديل (١٩٨٧)و بيع نفس بشريه، روايات الهلال، أغسطس، القاهرة.

لا أهميــــة لذلـــك ... اصـــدقاؤها الاسيويون قد وشوا بها.. والقصة اللاهثة عموما تحمل العديد من المعاني أو القراءات. وسوف نقسم قراءتنا لها إلي العناوين الآتية:

أولاً: دلالة معني الرواية واسمها

اخـــتار الكـــاتب – بقصــد أو بدون قصد– أن يطلق اسم: بيع نفس بشرية نحن نعلم عادة أن هناك اشياء تباع وتشتري واشياء لا تباع وخاصة تـــلك الاشياء الحميمة المتعلقة بالنفس من انفعالات وفكر ووجدان. ولكن لن يصـــل الأمر إلي درجة "بيع النفس البشرية" فإن هذا يشير إلي أن "الإنسان ونفســـه" قـــد دخـــلا في مجال "العرض والطلب" وان هناك من هو علي أتم الاســـتعداد للشـــراء في مقابل من هو علي أتم الاستعداد للبيع، هذا الاحتياج المتـــبادل (بيـــن الشاري والمشتري، المالك والمعدم) صاحب القوة والسلطة والـــثروة في مقابل الفقير المعدم الذي يدخل في معركة من أجل توفير لقمة الخـــبز لسد الافواه الجائعة قد أدي إلي سوء هذه "السوق" وليس هذا فحسب، بل ورواجها، طالما أن هناك عدم عدالة في توزيع الثروة، واختلال في القيم والمعايير أدت بدورها إلي ذلك.

وللنتنقل احداث او مقتطفات من الرواية لنعرف من هو الذي يشتري النفس الإنسانية، ومن هم الذين يبيعون أنفسهم، وما أسباب ذلك؟

نجـــد أن أول الذيـــن يقدمون عن طيب خاطر لبيع نفسه هو مدرس الـــلغة الإنجـــليزية "مصـــطفي". فما هي الاسباب التي قادته إلي ذلك؟ يقول مصطفي كاشف لحظة الصدق والتي اقتضته أن يصل الي حد يبيع نفسه:

"مـــا أمر أن نكون غرباء والاشد غرابة أن نتكالب علي هذه الغربة نخـــرج أســـوأ ما فينا حتي يأخذ المرء مكانه علي الطائرة. لقد فعلت اشياء كثيرة، كذبت علي كل الاصدقاء الذين كانوا يسبقونني في الاقدمية.. وتخليت عـــن خطيبتي التي كانت تحدثني عن فضائل الفقر واخلاق الفقراء.. نافقت

حضرة الناظر. وغازلت ابنته العانس. وطأطأت رأسي أمام المفتش. وتزلفت لهـم فـي المـنطقة التعليمية. كان الجو الذي أعيش فيه رطبا مليئا بالوجوه الشـاحبة. ومـات أبى وتـرك لي العديد من الأفواه الفاغرة التي كان يجيد إنجابها. كان نساجا علمني بالاستدانة وتخرجت عاجزا عن سداد حتي أبسط الديـون. عشت غريبا في نفس المكان الذي فيه ولدت... فقراء يتصارعون مع فقراء علي الفتات". ص ٢٧

أمـا ماتيلدا الفلبينية التي اتت من بلدها إلي هذه المدينة الخليجية فقد تغـربت هـي أيضا من أجل المال، ولذا فأنها في لحظة اكتشاف حقيقي مع النفس تقول:

"أن روح الارز قد صفحت عني. سوف تسمح لي بالعودة إلي بلدتي. هناك سوف أكل قليلا، وامارس الحب كثيرا. ولكن مع من أختار. النقود تأتي بعد ذلك". ص ٣٣

"وروح الارز" هـو طقـس من الطقوس التي تدعو إلي التفاؤل في الفلبيين كما أوضحت "ماتيلدا" حين سألها مصطفي (ص٣٧).

والأمر واضح أن ما دفع (مصطفي المصري، وماتيلدا الفلبينية) الي الاغتراب عن الأهل والوطن هو: الفقر وشدة العوز. فمصطفي تنتظره العديد مـن الديـون التي عليه أن يقوم بسدادها. وماتيلدا هي الأخرى تأكل قليلاً" وتضطر أن "تغترب عن ذاتها" لكي تمارس الجنس مع من لا تحب من أجل النقود. كما أن أفواه أخوه مصطفي جائعة وتنتظر الطعام، ووالدة ماتيلدا هي الأخرى تروقها أن تمارس الطقوس وأن تخضع ولا ترفض حتى يكون معها نقـود والقضية فعلا تطرح قضية الأزمة الاقتصادية، تلك الأزمة التي حدت بأفراد كثيرين- في مصر نركز الحديث- إلي السفر خارج الوطن، ورغم أن السـفر يحبـذه البعض من العلماء، ويرفضه البعض الأخر إلا أنه كان وما يزال له العديد من المساوئ منها:

١- أدي سفر الرجال إلي نشوء ظاهرة في مصر تسمي ظاهرة "تأنيث الاسرة" بمعني أن تكون الأم مسئولة مسئولية مباشرة عن ابنائها وتكون وحدها ملزمة باتخاذ القرارات الخاصة بالابناء ويكون ذلك امرا شاقا خاصة ان كان هؤلاء الشباب في سن المراهقة. وما المراهقة وفوراتها وطيشها وعبثها!؟.[١]

٢- أن غالبية الرجال الذين يسافرون إلي الخارج يتركون أسرهم في مصر، مما يقتضي ايضا أن تكون هذه الاسر بلا أب، بلا قائد، بلا مثل أعلي، وهنا تظهر مشكلة: غياب القدوة.

٣- أن الأبناء المغتربون يحرصون علي امداد اسرهم بكل ما يطلبون أو ما لا يطلبون من أموال، مما يجعل هؤلاء الابناء يشعرون بالتفوق في البداية علي اقرانهم وجيرانهم وصداقاتهم وجماعاتهم القرابية ممن لا يعمل أحد لهم في الخارج، مما يؤدي إلي نوع من التعالي والاحساس بالتميز والتفوق علي الآخرين.

٤- أن هذه الوفرة المالية الطارئة تقود إلي العديد من الانحرافات والأمراض النفسية والعقلية. فعلي سبيل المثال رصد أ. د محمد شعلان العديد من الاضطرابات النفسية التي تصيب فئة العاملين في الخارج واطلق عليها اسم " الأمراض النفط المالية"، ناهيك عن العديد من الانحرافات التي تصيب الابناء وخاصة أدمان الخمور والمخدرات[٢] أو الدخول في جماعات لها قيم منفصلة ومستقلة عن قيم المجتمع الأصلي "مثل جماعة عبدة الشيطان" والتي تم اكتشافها في مصر (ابان شهر رمضان عام ١٩٩٧ والتي اثارت موجة من السخط في الرأي العام وتباينت ردود الأفعال بين ساخط وبين محلل للعوامل التي قادت إلي نشوء مثل هذه الجماعة في مصر) والتي وُجد من خلال التحقيقات ان اباء بعضهم يعمل في الخارج.

٥- رصدت العديد من الدراسات النفسية والاجتماعية وجود العديد من التغير فـــي قيم مثل هؤلاء الافراد المغتربين، بل ورصدت صعوبة تكيفهم مع الأوضاع في مصر، واكتسابهم قيم واتجاهات جدية.

إذا كان مصطفي وماتيلدا يغتربان من أجل المال، فإن الكاتب يقدم لنا نموذجـــا ثالثا للاغتراب وهو "صالح" مدرس الشريعة والذي ينتمي إلي هذه المديـــنة الخليجية ورغم ذلك يشعر بالاغتراب والغربة ولكنه هو الاخر كان فقيرا، ولعل ذهابهما ليلا إلي الصحراء ورؤيتهما (مصطفي – صالح) لقرية الصـــيادين التي هجروها الان ولا يسكنها إلا الفئران، وكذا تمثل "شيخ كبير" قال أنه: ينتظر الرجال العائدون في البحر.. هذه الهلوسة المنبعثة من أرض الواقـــع تؤكـــد غـــربة (مصطفي) البعيد عن أهله ووطنه، وغربة (صالح) الغـــريب عن أهله ووطنه رغم تواجده في وطنه وبين أهله وأن ما يجمعهما هـــو عالم الفقر – كما قال صالح "– أنه عالم الفقراء الذي ننتمي إليه جميعا" ص٣٠.

وفي لحظة صدق مع النفس يحدث صالح مصطفي (الغريب/ الفقير/ المحـــتاج مـــثله) فيقول "– اتعرف ماذا كان يعمل ابي. كان غواصا .. علي البركان الجوع . وفي البحر كان الموت.. كانت ديونه كثيرة والموسم يوشك عـــلي الانـــتهاء وامرة "النواخذة" أن يفوض مرة اخرى حتي قبل أن يتناول بضعا من التمر أو يشرب كوب من الشاي. وغاص إلي البحر مرة ثالثة فلم يجد إلا الأحجار والطحالب. حاول الجميع أن يمنعوه. توسلوا للنواخذة. ولكن أبـــي لـــم يتوسل ولم يرض بتوسلاتهم. كان يريد أن يوفي كل ديونه. ودفع حياتـــه ثمنا غاليا من أجل دين لم يسدد. وعندما طفت جثته كان قد مر عليها وقت طويل" ص ٤٤: ص ٤٥.

ولـــذا فـــإن الكاتب قد وصل إلي قمة الحدس والعبقرية حين صور ذهاب مصطفي وصالح إلي قصر "الشيخ بن غانم – المشتري". وصف هذا

الموقف بقبوله "سار معا أبن النساج المسكين وابن الغواص المسكين وخلفهما الحارس المتجهم" ص ٤٥.

المشـــتري: هو بلا شك الشيخ بن غانم. أحد أهم الشيوخ في المدينة "أهـــم شخصية في البلدة... قصره هو المطل علي خور البحر" ص٢٢ ولذلا فقـــد تم تصوير الموقف/ اللقاء بين (المشتري – بن غانم) والبائعين لنفسيهما (مصطفي- صالح) وعلي الشاشة "تصوير للقاء الحميم والسري بين مصطفي وماتيلدا" هذا المشهد: أبلغ شئ عن القهر والاغتراب في الرواية. أن العلاقة الحميمـــة بيـــن الرجل ومن يحب لا يمكن أبدا أن تبتذل ويتم عرضها علنا هكذا. ولكن كل شئ مباح طالما يتوفر المال.

ولذا فإن عقلية المشتري تتضح حين يقول مصطفي: لا أهمية للنقود

قال الشيخ: الا تأتون إلي هنا من أجل النقود ... قال الشيخ: لا تغضب لا أحد يكره النقود ولكن يجب أن لا تشغلنا عن أشياء أخرى...

قال الشيخ: كم تبلغ مدة إعارتك.

قال مصطفي: أربعة أعوام.

قال الشيخ: هل تعتقد أنها كافية لتكوين نفسك.

قال مصطفي: الأمر ليس بيدي؟

قـــال الشيخ: الأمور بأيدينا هنا الشيوخ هم استثناء كل القوانين.. الم يخبرك أحـــد بذلـــك؟... واضـــاف الشيخ في برود قاطع: ... ومع ذلك فالـــبعض لا يكمـــل بينـــنا عاما واحدا... ربما بضعة أشهر .... أستطيع أن أضاعف مدة اعارتك لو أردت (ص٤٨: ص ٤٩).

هـــذا الحـــوار العبقري يوضح طبيعة العلاقة بين التاجر ومن يبيع، ورغم أن صالح (ابن البلد) قد ذهب مع مصطفي لكي يساعده في مقابلة هذا المســـئول الخطيـــر... إلا أن اللقاء أسفر عن زيادة الاغتراب والغربة بين

الشيخ والمشتري والبائع). وقد تم تصوير هذا المشهر للبيع والشراء في جمل بليغة ووصف أقل ما يوصف بالبراعة والجمال.

والتفت الشيخ التفاتة سريعة إلي صالح وهو يسأله:

- أين من؟
- ذكر صالح اسم اسرته كاملا. لم يبد علي الشيخ أنه يعرفه ... قال:
- وماذا كان يعمل والدك؟
- غيص.
- فقد اهتمامه به ص ٤٧.

ورغم أن مصطفي نفسيا كان يريد من صالح أن يقوم بدوره في شد أزره وتدعيمــه إلا أن "صالح قد أبتعد كثيرا. وحين نظر إليه وجده قد أزداد ابتعادا" ص ٤٩.

ولقــد أكد الشيخ/ المشتري لمصطفي عدم اعتماده علي أحد إذ "قال الشيخ وهو يومئ ناحية صالح في احتقار... لماذا جئت به معك؟

قـــال مصـــطفي.. لم أكن أعرف الطريق.. قلب الشيخ شفتيهه وهو يقول: لا يوجد طريق أخر ص ٤٩.

كمـــا أن صـــالح حين طلب مدير المدرسة من مصطفي الذهاب إلي الشيخ بن غانم أصر صالح علي ضرورة الذهاب معه.

قال مصطفي فجأة:

- لماذا قلت أنني في حاجة إلي شاهد.

قال صالح:

- لا تكن مكابرا. أنت في حاجة إلي أحد بجانبك.. وسكت صالح قليلا وهو يقول:
- أنت لا تعرف الشيوخ.
- وقال مصطفي في ضيق.

- ولماذا علي أن أذهب.
- قال صالح بغموض.
- لأنه لا مفر من الذهاب.
- هل تعود تم أن تطيعوا أوامرهم دائما

أهـتزت السـيارة تحت يدي صالح. ولم يتصور مصطفي أن يكون جارحا لهذه الدرجة قال.

- أنا أسف... لم أقصد (ص ٤٤).

أي لا مفـر من البيع طالما أن هناك فقراء وأغنياء وعدم عدالة في توزيع الثروات.

والإجابـة تطـرح قضية الاغتراب: حيث نجد ثلاث أشخاص منهم أثـنان مغـتربان عن الأهل والوطن (مصفي – ماتيلدا) ومغترب عن أهله ووطنه رغم تواجده بين أهله ووطنه (صالح) وفقد من ذاته ونفسه (الشيخ بن غانم).

وتطـرح كافة القضايا السابقة قضية الاغتراب واشكاله كما يبرزها علم النفس والعلوم الأخري في عجالة سريعة حتي نفهم هذه القضية.

فـلقد خلق الله العالم والكون وظل وسيظل الها سيدا لهما، والانسان خـلق منجزاته وافعاله، ولكنه قد يتحول إلي عبد لها... وهذا هو الفرق بين الوجود والاغتراب، بين الوعي بالذات وفقدان الاحساس بها.

والاغـتراب ظاهرة انسانية عامة سوية مقبولة حينا، مرضية معوقة فـي احيـان اخري، شائعة في كثير من المجتمعات بغض النظر عن النظم والايديولوجيات والمستوي الاقتصادي والتقدم المادي والتكنولوجي.

وتتعدد التعريفات التي قدمت لمفهوم الاغتراب، ومنها تعريف أريك فـروم والـذي يري أن "الاغتراب شكل من أشكال الخبرة يمارسها الإنسان ويقـر فيها بأنه غريب عن ذاته الا يجد نفسه كمركز لعالمه. كخالق لافعاله

وانـــتاجه، وإنما افعاله هي التي تصبح اسياده وعليه أن يطيعها. والمغترب خارج عن الاتصال بنفسه كما هو خارج عن الاتصال بالاخرين. انه مجرد شئ دون أن يكون منتميا لذاته أو للعالم.

وليـــس هـــذا التعريف هو المتفق عليه، بل تتعدد التعاريف وتتباين بتباين العلم او التخصص الدقيق. (٤)

وليس الاغتراب هو ضياع الانا في الاخر، بل يمكن أن يكون أيضا "محاصــــرة الاخـــر للانا .. ولقد جاء في الخبر أن الرسول -ص- قال: بدأ الأسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبي للغرباء".

وقـــد ورد الحديـــث بـــروايات مـــتعددة تفسر لنا معنى الغرباء (أو المغتربين) بأكثر من صورة ايجابية علي الوجه التالي:

١- قيل من الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون اذا فسد الناس.

٢- قالوا يا رسول الله: من الغرباء؟ قال الذين يزيدون إذا نقص الناس "وقد فســر أبـــن القيـــم الجوزية معني الزيادة في الحديث بقوله: معناه الذين يزيدون خيرا وايمانا وتقي اذا نقص الناس من ذلك".

٣- قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: "ناس صالحون قليل في ناس كثير من يعصيهم اكثر ممن يطيعهم".

وتمضـــي بقية الروايات كلها مبرزة الفهم الإسلامي العميق للجانب الإيجابي للاغتراب. (٥)

أي أن الاغتراب له جانبان: إيجابي وسلبي. وهنا يثور التساؤل هل اغتراب "من يبيعون أنفسهم- مصطفي - ماتيلدا- صالح" من النوع الإيجابي أم السلبي؟

من وجهة نظرنا نظن أنه اغتراب إيجابي حيث عبر كل طرف عن وعيه بوجوده، وعن علاقاته بالآخرين، ومن يملك أو لا يملك، وحتي يطيع وحـــتي يرتضــــي، يهادن أو يقاوم، هذا الوعي الشخصي الذاتي بلا شك قد

أرتـبط بوعيهـم الاجـتماعي، وبطبيعة البيئة التي انحدروا منها، وانساقهم الحضـارية، ومحـاولين قدر امكانهم الاستبصار بواقعهم وحل صراعاتهم الداخلية. ولعل موقف مصطفي خبر نموذج علي هذا الكائن الغريب المغترب الـذي يعاني من ليل الغربة "غير اليف، رطب وحار ولزج" ص ٨، ووارى "ماتيـلدا" بـل وخفف لها جروحها باحضاره الدواء، ودخل معها في علاقة انسانية حميمة/ جسدية/ روحية/ انفعالية/ تمريدة ضد الآخرين / المستغلين / الذيـن يـتاجرون فـي كـل شئ حتي "النفس البشرية" ولذا فإن المغترب (مصطفي) يعد ذلك نجده "في المدرسة لم يبال بطابور الصباح. ولا بالمدير المـتجهم. توجـه إلي غرف المدرسين. كانت خالية... تناهت إليه أصوات الطبول والاناشيد والأوامر المدرسية كأنها أصداء من عالم بعيد". ص ٤١

أمـا اغـتراب المشتري (الشيخ بن غانم) فكان من نوع الاغتراب السـلبي، أنه مغترب عن ذأته، يهرب من نفسه في الخوف الذي يزرعه في قلوب الآخرين، في مشاهدة الأفلام العارية، في محله الذي يشمل كل شئ من الرجال "وأطعمة وسجائر وخمور وعطور ومناديل ومزيلات للرائحة وربما مخدرات ايضا" ص ٤٦.

كمـا أن سـلوك المسـتقل / المشـتري يتضح في بشاعة أكثر في موقفين.

الأول: أن الخادمـة كـانت عشيقة الشيخ المفضلة (أو هكذا فرض عليها) أو هكذا ظنت ذلك (انها مفضله) وليس هذا في حد ذاته مشكلة ولكن المشـكلة أنـه "كان يطفئ سجائره في لحمي. لم يكن يبلغ الذروة إلا بعد أن يشم رائحة لحمي المحترق" ص ٢٠.

الـثاني: أنـه بعد أن شبع منها أراد أن يضاجعها كلابه "أي حراسة الخصوصيين" "بينما يكتفي هو بالتأمل" ص ٢٠.

ويطـــرح الموقف الأول قضية السلوك السادي Sadis M والذي يدل عـــلي انحراف جنسي يجعل السادي يشعر بالسعادة من خلال توقيعه الاذي بالغيـــر. وقـــد يكون الالم الذي ينزل بالضحية ألما ماديا (من ضرب ووخز وعـــض ونشـــعر به قد يصل إلي حد القتل) أو نفسيا (في صورة التجريح والاذلال) وقد لا يعدو أن يكون الالم في بعض الاحايين مجرد افتعال او ما يسمي بالسادية الرمزية. (٦)

وهـــذه القسوة لا تفتقر فقط علي "إيقاع الاذي بالضحية في الموقف الجنسي". بل استطاع الطب النفسي ان يرصد العديد من الملامح بعينها لمثل هذه الشخصيات السادية، فهو يشعر بالذة وهو يهين الشخص أمام الآخرين، ويكـــذب حتي يوقع بين الآخرين، كما يتلذذ بتقييد حرية الآخرين، ولا يحب ابدا الاساليب السريعة في الموت أو القتل بل يختار الاساليب البطيئة، يفرح لاخبار الحروب والكوارث، يذل كل من يعمل تحت سيطرته. ولكن مصطلح الســـادية نشأ في البداية مرتبط بالعملية الجنسية فهل كل عملية جنسية تحتاج إلي عنف من الرجل وخضوع من المرأة؟

فـــي الواقع أن هناك قدرا من السادية لدي الرجل في علاقته بالمرأة ولكـــن هـــذا القـــدر لا يـــؤدي إلي الإيذاء الجسدي، وايضا هناك قدر من المازوخيـــة في كل امرأة في علاقاتها الجنسية بالرجل، إلا ان هذا القدر لا يصـــل إلـــي درجة الخضوع التام واستجداء العذاب من الآخرين. ولذا فإن عـــلماء النفس لا يميلون إلي الحديث عن السادي في انفصال عن المازوخي Masochism، ذلـــك الشخص الذي لا يشعر باللذة إلا بقدر معاناته من الالم البدني والنفسي.

والمازوخية يمكن أن نميز لها صورتين:

١- المازوخيـة الانحرافية: وتنحصر في أن الإشباع الجنسي يكون مرتبطا بـالألم البدني، من جلد ووخز وعض وقرص وضغط او مرتبطا بالألم النفسي المتولد عن الاهانة والتحقير والاذلال.

٢- المازوخيـة العصابية: وفيها يمتزج الانحراف بالعصاب، ونجدها لدي افـراد يحسـون بـالذنب نتيجة ميولهم المازوخية، فهم عاجزون عن ممارسة الجنسية السوية وعجزهم عن اشباع ميولهم الانحرافي ولابد من الالتفات إلي أن المازوخية لا تنفصل عن السادية وان القسوة علي الذات مشوبة بالقسوة علي الغير. (٨)

ولكـن هل كانت "ماتيلدا" مازوخية، ولماذا تقبلت من السادي (الشيخ بن غانم – مشتريها) ان يطفئ سجائره في لحمها اثناء الممارسة حتي يصل إلـي الذروة؟ وإذا كانت تقبل ذلك فلماذا هربت وخاطرت بحياتها وهي تعلم أن الـتاجر الـذي اشتراها أذرعة طويلة ولا يخفي عليه شئ علي الأقل في المدينة؟

أن "ماتيـلدا" كـانت مـن الناحية النفسية انسانة سوية حتي بمعايير التنشـئة الاجـتماعية التي تربت في كنفها. فالجنس ليس محرما، ويجب أن تمارسـه، ولكـن كما قالت وهي تحلم بعودتها إلي وطنها "مع من تحب أو تخـتار" ص ٣٣. بيـد أن الضائقة المالية جعلتها تمارس أنواعا من السلوك بـدون ارادتهـا وتحمـلت الكثير من أجل ذلك. ولكن صرخ اناها المستعبد ورفض ذلك وهربت رغم الحراسة والقصر والأوامر والبنادق كما أنها كانت ترفض أن تبيع جسدها بالنقود، كما أنها رغم عدم خضور معارفها الفلبينين لنجدتها- غامرت وقررت الخروج من غرفة مصطفي إلي المجهول. وعندما مـنعها مـن ذلـك حمـلها إلي غرفته قالت له: "يجب أن ترغب في حقا.. أرجوك.. كن راغبا في" ص٣٨. ومن خلال الرغبة المتبادلة في الهروب من اغتراب النفس عن الاخر. بدأ اللقاء الجنسي حار وملتهب بين المغتربين. هذا

الـــلقاء الجسدي/ الروحي قد جعل المغتربين (مصطفي/ ماتيلدا) أكثر تحديا لـــلعالم ولـــلقهر وللظلم وللجبروت حتي ولو كانا في عرينة، وتحت حراسته وحمايته ومتأكدان من النهاية.

وقد صور المنسي قنديل باقتدار هذه اللحظة من الصدق والذوبان بين نفســيين مفـــترين إلـــي القول وهما في غمرة الممارسة الجنسية سألته: هل مـــازلت خائفا.. قد يقتلونني ولكنني لست خائفة. وقالت له أمه (رمز التراث والقيـــم والتقاليد والتحذير من الوقوع في الغواية): من خاف سلم. كان أوان السلامة قد فات. ولم يعد لنا إلا حياة واحدة فقامر بها لقاء لحظة من المتعة. ص٤٠

إذن الذي يشتري كان يعاني من السادي، والطرف الآخر/ الأضعف/ العبد كانت لا تعاني من المازوخية حتي تكتمل حلقة (السادومازوخي). ولذا كـــان هروبها المثير رغم جروحها وانتشار "بقع سوداء.. بقع صغيرة داكنة فوق الصدر والثدي والبطن" ص ١٩ و"أنكشف الفستان عن ساقيها النحيفتين آثار وحشية بعضها مازال داميا كان اللحم متهتكا والدم الذي ينبجس منه قد لـــوث ملاءة السرير ولوث ملابسه" ص١٢. ورغم ذلك هتفت به "أستتركني لهم" ص ٢٠.

فهـــل بعد كل ذلك نقول أن ماتيلدا كانت "تستغذب" عذاب السادي. لا ولكن ما جعلها تتأمل هو خشيتها من أجل أن لا تفقد رضا التاجر. ولكن لكل شئ حدود وأوان ومكان معلوم وقد أن أوان التمرد.

أما الموقف الثاني: موقف التاجر (السادي- الشيخ بن غانم) يريد من كلابـــه (حراسة) مضاجعة ماتيلدا، أو مشاهدته للافلام الجنسية. فلا شك أن هـــذان الموقفـــان ينطويان تحت فعل الانحراف الجنس (وحتي فعل احراق جسدها بالسجائر) ويري التحليل النفسي أن الانحرافات الجنسية ليست

إلا نكوصا إلي مرحلة من مراحل النمو في الطفولة والجمود عليها. فكل فرد عرضة لهذه الانحرافات بحكم مروره في نموه بهذه المرحلة.

كما أن فرويد كان يري أن المنحرفون لايعانون من الصراع النفسي أو الكبت، لانهم ينغسون عن الدافع الجنسي ويجدون سبيلا لتحقيق اللذة، وليس هناك داعي لتحليلهم نفسيا، لأن العلاج النفسي لن يجدي معهم.

كما أننا يجب أن نكون علي علم بالفروق بين الانحرافات الجنسية والجريمة الجنسية. وليس هذا مكان الاستفاضة أو حتي الولوج في هذه القضية.

وإن كانت القصة تنتهي اخيرا بابراز سطوة التاجر وخضوع كل الإجراءات تحت قيادته. فمصطفي يوافق (مضطرا) إلي اعطاء ابنه دروسا خصوصية وفي القصر، وفي اثناء ذلك يؤكد للشيخ أنه يعرف مكان ماتيلدا الأجيرة/ المغتربة مثله، وصالح يجلس مغتربا عن نفسه وعن وطنه وأهله رغم أنه يعيش وله جذور في الوطن. وكأن صوت المال والثروة والقوة والسلطة يهدد لمن تسول له نفسه بالتمرد الا فائدة من ذلك. وهل هناك أكثر من موقف ممارسة جلد الذات حبا واختبارا وتفاعلا بين المغتربين / المؤجرين (مصطفي / ماتيلدا) وهما يمارسان أخص الخصوصيات، من أن يجد هذه اللحظة الحميمة والسرية مذاعة علنا وعلي شاشة السينما في بهو الشيخ!

أبعد هذا الموقف تقول أن هناك إمكانية لفك عقدة الاغتراب والدخول في لقاء انساني/ دياكلنيكي/ علي قدم المساواة بين التاجر والعبيد؟

أن القصة تستبعد ذلك، والواقع يؤكد ذلك، ولكن متي يلتقي الاثرياء والفقراء علي أرض الحوار والتعاون والتكامل؟ فليهرب الاثرياء ما شاء لهم ان يهربوا وليغترب الفقراء ويتعذبوا ويستلذوا- قسرا وغصبا- سادية الاثرياء- ولكن في وقت ما لا بد أن يلتقي الجميع. لان المنطق يرفض استمرار هذا الغبن والتفاوت.

مصـــادر الدراسـة

أنظر علي سبيل المثال :

١- سلوي علي سليم: الاسلام والمخدرات – دراسة سسيولوجية لأثر التغير الاجــتماعي علي تعاطي الشباب للمخدرات، ١٩٨٩، مكتبة القاهرة، ص ١٢٨: ١٢٩.

٢- محمــد حســن غانم: ديناميات الاحتياجات الضغوط ومركز التحكم لدي مدمن المخدرات- دراسة حضارية مقارنة، رسالة الدكتوراه قدمت لآداب عين شمس ١٩٩٦م. ص ٢٠٦ : ٢٠٨.

٣- هــناك العديــد من الدراسات التي أهتمت بفئة المصريين المغتربين أو العائدين من الخارج نذكر منها:

أ – ســامية موســي: المشكلات النفسية والاجتماعية لبعض الأسر المصرية المقيمــة خــارج الجمهورية، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٧، القاهرة.

ب- سهير كامل: القيم السائدة والقيم المرغوبة لدي عينة من الأسر المصرية العــائدة من المهجر، مجلة علم النفس، العدد ٢١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، القاهرة.

ج- عــبد الباسط عبد المعطي: الهجرة النفطية والمسألة الاجتماعية- دراسة ميدانيــة عــلي عيــنة من المصريين العاملين بالكويت، مكتبة مدبولي، ١٩٨٤ القاهرة.

د – وفــاء فهيم مرقص: اثر انتقال القوة العاملة المصرية إلي الخارج علي التنمية الصناعية في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة.

هـــ- فاروق عبده: التأثيرات الثقافية للأسرة المهاجرة – مجلة كلية التربية بدمياط، العدد: ٢، جامعة المنصورة.

و - علي عبد السلام/ أحمد عبد الهادي: دراسة نفسية لبعض المتغيرات الشخصية والقيمية للعاملين العائدين من الخارج، مجلة علم النفس، العدد: ٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.
ط- محمد حسن غانم٢٠٠٤ : المصريون والسلطة- دراسة نفسية (المكتبه المصرية، الاسكندرية).
٤- سعد المغربي: الإنسان وقضاياه النفسية والاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،، ١٩٩٣م، من ص ٤٩: ٦٢.
٥- أحمد خيري حافظ: الاغتراب لدي طلاب الجامعة، رسالة دكتوراة غير منشورة، آد ، عين شمس، ١٩٨٠، القاهرة.
٦- سيجموند فرويد: ثلاث مقالات في نظرية الجنسية، ترجمة سامي محمود علي، مراجعة مصطفي زيور، دار المعارف، ط ١٩٨٠- معجم المصطلحات، (السادية) من ص ١٨١ : ١٨٢.
٧- المرجع السابق، مصطلح (المازوخية) من ص ١٩١: ١٩٢.
٨- انظر سعد جلال: في الصحة العقلية - الأمراض النفسية والعقلية والإنحرافات السلوكية، دار الفكر العربي، الإسكندرية، ١٩٨٦ فصل الإنحرافات الجنسية من ص ٣٩٧: ٤٢٧.

قــــراءة نفسيـــــة فى قصص

"مجموعة صدأ القلوب"

محمد قطب

٦- قراءة نفسية في قصص محمد قطب
مجموعة "صدأ القلوب" ١٩٩٥ (*)

تمهيد في مدخل:

العلاقـــة بيـــن علم النفس والأدب قديمة جدا، بل أن فرويد (مؤسس مدرسة التحليل النفسي) يقول صراحة أن الأدباء هم أساتذته لأنهم غاصوا في الحياة الإنسانية وسبر أغوارها حتي قبل أن ينهض العلم بذلك.

والأديب ليس المطلوب منه أن "ينقل" بأمانة ما يمور به مجتمعه من احـــداث ومعـــارك، أو يســـجل تسجيلا دقيقا وامينا لكل ذلك، بل مهمته أن يكتشـــف ما هو انساني في هذا الواقع، يلتقطه ويتغني به ويصوره في أبهي صـــوره حـــتي يـــلمس شـــفاف قلوبنا وتتمسك به، وعلي سبيل المثال – لا الحصـــر – مـــازالت تعيـــش فـــي وجداننا الرواية القصيرة الرائعة "العجوز والبحر" لهيمنجواي.

ذلـــك أنـــه لـــم يصور المجتمع الأمريكي البراجماتي واللهث خلف الماديـــات، وإنمـــا نجـــح في اصطياد لحظة انسانية نادرة في هذا المجتمع، وتغـــني بهـــذه اللحظة، إذ تغني بصفات انسانية نبيلة مثل "الصبر والمثابرة" والقدرة علي احتمال المتاعب والآلام، وقد ألبس هذه الصفات ثوبا واقعيا من خـــلال حيـــاة عجوز ظلت قلوبنا تركض خلفه في رحلته العنيدة في مقاومة اخطـــار البحر والطبيعة، وصحيح ان كاتب القصة لم يكن بشجاعة بطله في الـــرواية "الـــرجل العجـــوز" حيث انتحر هيمنجواي إلا أن ذلك لا ينفي ابدا براعة هيمنجواي في اصطياد لحظة انسانية نادرة وعزيزة والتغني بها.

(*) محمد قطب (١٩٩٥) صدأ القلوب، الهيئة المصرية العامه للكتاب.

وعلي هذا الأساس يكون خلود الأدب وحسه لشفاف القلوب، واللهاث خلف البطل، والاتصال به، والتوحد به حزنا أو فرحا أو اكتئاباً.

ولـــذا فإن الفنان أو الأديب الحق – من وجهة نظر فرويد- إنما هو شـــخص قـــادر عـــلي تجريد احلامه من طابعه الشخصي الذي يثير التبرم والضـــيق في النفوس وتحويلها إلي اعمال تثير اللذة والامتاع لدي الآخرين، بمعني أخر أن الأديب الحق هو الذي يحول "الآلام الخاصة" إلي "الآلام عامة مشتركة" ومن هنا يكون الأعجاب بهذه الأعمال علي أساس أنها مرآة صادقة كل منا رأي فيها نفسه بكل تشابكاتها وتعقداتها.

ومجموعة محمد قطب "صدأ القلوب" تتكون من عشر قصص قصيرة أو متوســطة الطــول، والملاحظ أن هناك فجوة ما بين تاريخ كتابة القصة وتاريخ النشر، ثم تاريخ جمع شتاتها في كتاب.

وإبراز كتابه تاريخ النص هام جدا لأنه يؤرخ لمرحلة زمنية معينة، وإن كـــان الأدب الصـــادق لا يعترف بهذا التسجيل والتأريخ بدليل أن هناك العديد من الأعمال الخالدة والتي اكتسبت في أزمان غابرة ومازالت تؤثر في النفس وسوف نقوم بقراءة نفسية لبعض قصص المجموعة.

<u>أولا: قصة صدأ القلوب</u> (من ص٥: ص ٢١) وتدور باختصار حول الـــراوي والـــذي اضطرته الظروف إلي اصلاح "اكرة سيارته"وقامت علاقة حميمة بينه وبين الاسطى والذي كان حريصا علي امرين: رش الماء/ تبخير المحـــل وهمـــا طقســـان قد ورثهما الاسطي (عم عبده) من والدته رغم أنها حرمـــته من الميراث. وكتبته لابنها الصغير علي أساس أن يكمل تعليمه بيد أن "الصـــبي" تســـرب مـــن المدرسة وعاد إلي أخيه ليعمل معه "صبيا" في إصلاح السيارات.

وعمومـــاً فـــإن هذه القصة/ الجميلة تثير العديد من القضايا بيد أننا ســـنركز فقـــط علي موضوع "طبيعة الورش" وهو موضوع وإن كان قد تم

تناولــه مـــن جـــانب العديـــد مـــن الدراسات الانثربولوجية والسسيولوجيا والسيكولوجيا إلا أن تناوله في الأدب نادر جداً وسطحي.

والصـــبي مصطلح يضرب بجذوره في التاريخ الصناعي المصري، حيث يرجع الي نظام الطوائف القديم، وصبي اليوم مجرد "أثر" من آثار ذلك النظام والذي ذهب في زحمة التطور الاجتماعي وبقي الاسم، كما أن الصبي (ذكـــر كـــان أم أنـــثي) هو عبارة عن فتي صغير مبتدأ في تعلم وممارسة الأعمال والحرف اليدوية والألية علي السواء، وكذلك الأعمال غير الحرفية.

ومـــن العجيـــب إن كافة الدراسات التي تناولت "الصبي" قد وجدت العديـــد مـــن الملامح التي ذكرها المؤلف من خلال رسمه لشخصية الصبي وهي:-

١- **فيمـــا يتعـــلق بســـن الصبي:** غالبا ما يكون في مرحلة التعليم الابتدائي وقد تسرب من الدراسة وانعكاس ذلك علي سير العملية التعليمية.

٢-**الظـــروف الاسرية للصبية:** وهم غالبا ينتمون إلي أسر تمثل قاع الســـلم الاجتماعي في المدينة المصرية ولها ملامحها مثل: زيادة عدد أفراد الأســـرة، أنخفـــاض مســـتوي نصيب الفرد، وكذلك الفقر (والذي يعد عاملا طاردا للطفل من المدرسة، والبيت، وحضن الأم).

٣- **ظـــروف العمل:** أتضح من الدراسات أن الصبية يعملون تقريبا في كافة المهن والمجالات كما أن عملية الاشراف والتوجيه ليست ذات بال، وإنمـــا فقـــط يهمـــه العائد المالي، ناهيك عن مصادر الدخل الأخري (والتي أضحت اساسية مثل (الوهبة/ أو البقشيش) أو المصروف.

٤- **مـــناخ العلم داخل الورشة:** أن مناخ العمل داخل الورشة يفتقر إلـــي ابسط الشروط الانسانية والصيبة، لأن غالبية الورش لم تبني علي هذا الاساس وبالتالي لم يراعي شروط العمل، إضافة إلي عدم نشر مظلة التأمين لحماية هؤلاء الصبية.

ولكـــن اين يذهب العائد؟ في الغالب فإن الصبي – وهذا واضح من الملاحظات اليومية، وكذا ما صوره قطب – حيث يضيع في شراء السجائر غاليــــة الثمن (الكنت) وشراء اشياء مظهرية لا تخدم البنية الأساسية علي أي حال.

وما كانت هذه الخواطر لولا القيمة الجمالية والتصوير الانساني لهذا العالم الرحب.

أمـــا قصـة: **الحلم يأتي غدا** (من ص ١٤١: ١٥٨) فهي قصة جميلة وانســـانية إذ تتـــناول باختصار حياة مجموعة من البشر يعيشون منذ عشر سنوات في مساكن الايواء وما أدراك ما مساكن الايواء حيث (لا باب فيه ولا حاجــز، الكل يري الكل، والكل يجرح الكل، والكل يصمت علي فعل الكل) ص ١٤٦. ولـــذا يتمني البطل أن "يعثر علي مكان يقيه من عيون الآخرين، ولما طال به التمني استسلم لواقعه واصابه هم غويط لاحقه طويلا" ص ١٤٦ . ولذا مضي يحلم ويحلم وفوجأ في صباح اليوم التالي بسكان الايواء يريدون أن يذهبوا معه إلي لقاء المسئول الكبير لكي يعثروا علي حلمهم، يسيرون في اشـــبه بالمظاهـــرة ولكن كل الجسور الموصلة إلي المسئول تهدم ولا يجدوا مفـــرا سوي أن تكون اجسادهم "المعبر الذي يعبرون عليه" ويغرقون جميعا لانهم حين خافوا من الغرق صرخت فيهم المرأة: اتظنون انفسكم أحياء؟! ص ١٥٧.

وهذه القصة الانسانية النبيلة تطرح قضية: فقراء أو حرافيش المدينة، وهل لابد للمدينة من ضحايا يسكنون مساكن الايواء والقبور، ويعيشون علي حافة الرخاء؟!

وإذا كان لكل مدينة فقرائها وضحاياها فأننا نري أن هناك خصوصية تميز فقراء كل مدينة من مدن العالم. فمصر – علي سبيل المثال ومثلها مثل مدن العالم الثالث علي السواء– تتميز بعدة سمات:

١- أنها قد شهدت تطورا سريعا وعنيفا أطلق عليه اسم الانفجار الحضري.

٢- أن المديـــنة كانت وما زالت وستظل أداة جذب لسكان الريف والباحثين عن حياة يسودها قدر من العدالة.

٣- أن العاصــــمة الأولي تستأثر بالقدر الأكبر من الوافدين لأنها عادة تمثل المحل المختار من قبل الصفوة وأجهزة الدولة.

٤- أن غالـــبية مـــوارد الدولـــة توجه أو تنفق في المدينة الأولي من حيث شبكات الطرق والمياه والصرف الصحي والكهرباء مما يجعل العاصمة بحـــق "الفتريـــنة" التي تتجمل بها الدولة بل وتتباهي بها أمام دول العالم نـــاهيك عـــن أن الاحشـــاء والاجناب والحوافي مازالت تئن من وطأة الظروف.

ولعـــل واقعـــة "سلوك الفقراء في احداث يناير ١٩٧٧، والتي أطلق عليها الرئيس السادات: انتفاضة الحرامية، وكذا موجة تمرد الأمن المركزي في فبراير ١٩٨٦ مثالين شاهدين علي ضرورة تلمس العدالة، ومد الخدمات، واحتضان هذه البؤر المشتعلة.

ذلـــك لأن الفقيـــر في المدينة/ العاصمة يعيش بين شقي الرحي: الم الحـــرمان والفاقة والعوز، ومشاهدة النعمة البادية/ الصارخة حتي في الهواء الـــذي يشمه في شوارع الاثرياء (من خلال العطور الباريسية غالية الثمن). وهـــناك سقط الفقراء دون أن يجدوا من يأخذ بأيديهم، أو يرفع شكاياتهم إلي المسئولين. وقد أحسن محمد قطب في وصف ذلك حيث صور كافة الجسور وقد تهدلت وتحطمت، كما أنهم ثاروا وشاركهم الكثيرين من المارة، وتم كل ذلك وسط صخب السيارات، الارتفاع الشاهق للبنايات، والنعيم الذي يتراقص من كل الزوايا والاتجاهات (دون أن يهتم أحدا بهم من فئة الاثرياء) فهل هذا يمثل قطيعه.

عـلي أن الأمر في الأمد الطويل يحتاج إلي ضرورة الاهتمام بهذه الفـئة لعـدة اعتبارات انسانية وسياسية واقتصادية واجتماعية وحتي دينية/ حيـث أن كافة الأديان طالبت بالبحث عن الفقير والاخذ بيده بل لا يكون من الإسلام أن تنام شبعانا واخيك المسلم يتضور جوعا وحرمان (وما بالك وهذا الأخ/ المسلم هو جارك وشقيقك ويساعدك في قضاء شئونك)؟!

فـي قصـة الأمان الذي كان (من ص ٢٣ : ٣٦) يتحدث عن رجل قابل امرأة كان يحبها، لم يلتق بها منذ عشر سنوات، هرب منها وتزوج كل منهما من أخر ولم يبق في النهاية إلا الندم حيث لا يفيد.

وعمومـا فإن عدة قصص في المجموعة قد طرحت تصورا للمرأة تستطيع أن تستخلص منها سمات عده للمرأة في أدب محمد قطب (وأن كان هذا يحتاج إلي قراءات أخري في أعماله الإبداعية): فالمرأة تبعث علي الفخر تحـض زوجها علي ان يساير ركب التقدم أو التهليب مثل الزوجة في قصة تداعيـات حزيـنة وتسفره الحلم، وكذا تراجيع الصدى والصمت، حيث أن الـزوج يحـب الهـدوء والزوجة تعشق الصخب، وقد فشل البطل تماما في الذهاب إلي زوجة لمعرفة لماذا لم تعود من زيارتها لأسرتها بعد أسبوع.

فالعلاقة بين الرجل والمرأة في قصص محمد قطب علاقات سطحية، بهـا تصـدع، والاثـنين علي حافة الهاوية والاختلاف، وإن كانا يتعايشان لأسـباب اقتصـادية واجتماعية وعدم الرغبة في المغامرة بالتجديد ولذا فإن راوي قصة: انكسار الضوء يبحث عن امرأة لا وجود لها في الواقع، ورغم أن البطل يتهم باختطافها إلا أن المحقق يطلق سراحه لأنه لا يوجد نص في القانون يحرم هذا الفعل.

وإن كـانت العلاقة بين المرأة والرجل تحتاج إلي دراسة متأنية كما انعكست في قصص محمد قطب.

وتـلك قـراءة نفسـية سريعة لقصص مجموعة صدأ القلوب لمحمد قطب.

قـــراءة نفسيـــة لروايـــة

صاحـب البيـت

لطيفـة الزيـات

٧- قراءة نفسية لرواية صاحب البيت

لطيفة الزيات [*]

تـدور الـرواية باختصـار حول امرأة تدعي "سامية" وقد أقترنت بمناضـل يدعـي "محمد" والذي تعرض للسجن، ويأتي "رفيق" صديق محمد ليـأخذه ويهربا معا إلي بيت أخر مخافة من مطاردة الشرطة. وقد تزوجت محمد رغم أنف اسرتها وتعاني من عدوانية واقتحام رفيق، وتكره بدون سبب واضـح "صـاحب الـبيت" وحين تشعر بعدم وجود وفاق بين زوجها محمد وصـديق رفيـق تقرر في لحظة هستيرية أنها لا تصلح لهذه الدور وتقرر العودة إلي البيت القديم، ولكن قبل أن يتحرك القطار تقرر العودة مرة أخري وتدخـل فـي عراك مع صاحب البيت. والرواية الفاظها تقترب من الهمي، والـتكرار، وتميل إلي تكرار الزمن، وتكرار الجمل، ولا تستطيع أن تتمالك أنفاسـك وأنـت تتابع سامية تلك الانسانة المترددة وفي نفس الأن متمردة، وتعيش صراعا بين أن تستمر علي تمردها ورغبة في العودة إلي البيت القدم (الأم/ الأرض/الـتقوي/ الخضـوع / الرضوخ للقهر)، وتشعر للحظات أنها غريـبة عـن جو "الله" ورغم أنها تقرر العودة، بل وبالفعل تستقل مكانا في القطـار المتجه إلي بيتها القديم إلا إنها وقبل أن يتحرك القطار تقرر العودة مـرة أخـري وتطرح الرواية – كما تشير الكاتبة نفسها – من خلال فصل كتبـته فـي نهاية الرواية عن "تجربتي في الكتابة" (من ص ١١٧: ١٢٩)، وتحديـدا حول رواية: "صاحب البيت لألوان عدة من ألوان القهر المحسوسة وغيـر المحسوسـة، التي تنزل بالانسان وخاصة إن كان أنثي نتيجة لنشأته ونـوع الـتربية الـتي يتلقاها في هذه النشأة والترويض الذي ينزل به حتي يتواءم مع مجتمع قاهر يرفض الاختلاف ويتطلب التوائم ويصر علي تحويل

---

[*] لطيفة الزيات (١٩٩٤). رواية صاحب البيت، روايات الهلال.

الناس إلي قطيع من الماشية تقاد فتنقاد. كما تقره "صاحب البيت.. للتفرقة ما بيـن الحـب والرغبة في التملك، وترصد العلاقة بين الجنسين القائمة علي الضـياع فـي الآخر والاستحواذ علي الآخر كلون من ألوان العبودية وفقد الندية والفردية" (من ص ١٢٢: ١٢٣).

هذا ما تقرره الكاتبة كمضمون للرواية وعموما فإن "قراءتنا النفسية للرواية ستستند إلي عدة محاور"

الأول: مـا دلالة البيت القديم ثم بيت الزوجية ثم البيت الذي هربت إليه مع رفيق وزوجها الهارب من السجن.

الـثاني: لقـد أحاطت الكاتبة: صاحب البيت (وهذا اسم الرواية) الكثير من الغموض. فما الدلالات النفسية التي يحملها العنوان وصاحب البيت.

الثالث: المرأة والقهر.. خاصة وضع المرأة من الطبقة المتوسطة والتي نالت قدرا من التعليم والاستقلالية وعاركت إلي حدا ما الواقع ومنغصاته.

الرابع: طبيعة التمرد علي السلطة وفائدة ذلك من الناحية النفسية علي الذات النفسي، خاصة للمرأة (سامية) والرجل (محمد ورفيق).

ولنـبدأ بـالمحور الأول: فالـبيت القديم تردد كثيرا في الرواية، أنه أضـحي بطـلا غير محسوس، ورغم أن البطلة (سامية) تشعر بالحنين إلي العودة إلي البيت القديم كلما واجهت الواقع وتحدياته، إلا أنه التذكير يفيد من الـناحية النفسية في التعرف علي الفصل بين الجانب أو الرغبة المادية (أي الـتواجد الجسـدي) والتواجد النفسي (حيث النكوص إلي مرحلة سابقة من مـراحل الـنمو كـان الفرد لا يواجه الضغوط اتكالا واعتمادا علي حماية الآخرين وخاصة السلطة الوالدية أو من يقوم مكانها.

ولـنقرأ معا متقطفات من هذا النكوص/ الذكريات التي تصور البيت القديم عرف محمد (رمز التمرد علي المجتمع وقوانينه) أنها حنت أحيانا في وحدتهـا العـزلة والرفض للمجتمع الطويلة إلي البيت القديم، وأمان ما بعده

أمـــان، إلي رتابة لا يخل بها شئ (والرتابة رمز القهر والاستلاب والتقولب والانصـــياع كالقطيع وإلغاء الفروق الفردية) ولا يكاد يمسها العالم الخارجي (السلطة وجبروتها إلي الصمت الراهن علي البيت القديم لا يفصح ولا يريم، إلــي خــطى لا يسمع وفي أحد تمضي لاتذه بالجدران (وعدم سماع الخطى يرمــز إلـــي عــدم أعمـــال العقل والدخول في حوار ديالكتيكي مع الآخر، والجدران رمز للقناعة وأنه في الإمكان أبدع مما كان) وكأن لم تمضي إلي جدتها (والجدة هن رمزا اللتقاليد والعادات والمعايير والتي تحدد سلفا ومقدما ما لا يكونوا الا أن الأفراد لن يكونوا نسخا كربونية واحدة، وأن "اللي نعرفه أحســن مــن الـــلي ما نعرفوش"، وثوبها الأبيض، تجرى كفها علي المسند المشروخ (والمسند المشروخ لعله بيرمز إلي أن الميراث الحضاري حيث لا يصـــلح لكـــي يـــتعايش أو يتواجد لان به كسور أو عيوب أو شروخ) لكن تتماســـك عـــلي أمل أن يلتئم الشرخ، والشرخ لا يلتئم (وهنا رمز أن الجدة تحـــاول قدر طاقاتها أخفاء العيوب، ولكن هذا الأمل يتبخر أو فداحة الشرخ) إلـــي حـــي عـــلي الصلاة من المئذنه المطلة علي البيت (رمز للالتزام بأداء العـــبادات الديـــنية والالتزام بها) (ص ١٠) وما بين تفسير لمعاني الكلمات. والنكوص إلي العودة إلي البيت القديم تتكرر كثيرا عبر الرواية. لكن سنكتفي بمشـــهد أخر يحمل العديد من الدلالات "البيت الكبير أو القديم: ارتسم المشهد مكـــتملا امام سامية وهي تقف وسط دائرة من النساء يلبسن السواد، كما في حالـــة حداد وقد يكون السواد والحداد رمزا علي استلاب المرأة وانصياعها لقوة الزوج وحزنها من أجل ذلك، وقد تكون حالة الحداد اعتراف وتمرد من قبل النساء علي هذا الوضع!)، ماذا فقدن؟ لا تعرف . في تناقض مع السواد تجلس المقعدة (ورغم المقعدة يشير إلي احتمالين الأول: رغبة عدوانية تجاه الجـــدة ومـــا تمثله من قيم متمنية لها أن "تشل" ويكون محدودا أو محاصرا والثاني: يشير إلي أن القيم والموروثات قديمة بالية واصبحت لا تتناسب مع

ايقاع العصر وقيمه الجديدة علي مقعدها الذهبي (رمز لأن الموروث دائما لا يقـدر بمـال لأنه من رائحة الاجداد المكسو بالقطيفة الخضراء (ولعل سمك القطيفـة هنا يرمز إلي أن الموروث قديم جدا وضارب بجذوره في القدم أو صـعب الـتعامل معه) تمسك طاسة الخضة (ولعل رمز طاسة الخضر هنا يشـير إلـي الحماية التي يضفيها الموروث علي الابن الضال... لان باقي السياق يوضح أن الطاسة تقدم لكل من تعرض لموقف جديد في اشارة مؤكدة لا فـائدة مـن التمرد، لان رهبة والفزع مواجهة الجديد فيه كفيل بأن تزرع وتجسـم الـرعب بل وتشل الفرد ولذا فإن أول طقس من طقوس التوبة عن التمرد وعدم الخروج عن الاطار الاسري والمألوف هو تقديم طاسة الخضة وشـرب ماءها والذي يزرع السكينة والأمن في الشخص الذي كاد أن يضل أو يضـل)... تطالـبها جدتهـا أن تشـرب وبعد جدتها أمها ثم النسوة في المتشحات بالسواد وفي صوت حزين: إشربي.. ص ١٠٠.

بيـت الـزوجية: وصفته حين تصورت اقتحام الشرطة له الأن بعد هـروبها "هم الأن في بيتها.. لابد أنهم كسروا الباب، كل الأبواب، وبعثروا الكـتب والاوراق والملابس في المطبخ تركت حللا قذرة وأطباقا في حوض المطـبخ وقشـر البصل علي المائدة في الحمام تركت ملابسها الداخلية في الـدولاب.. لو عرفت لسترت" ص ١٩. هذه الصورة التي تقدمها عن بيت الـزوجية بهـا مكان للثقافة ومكان أمن للمعيشة، ولكن الشرطة (رمز القهر والـتعقب والسـجن) ستبعث في شقتها، وتعبث بمحتوياتها. وإذا كانت بيت الزوجة يرمز إلي: التمرد. حيث تمردت علي تقاليد الأسرة. واقترنت بمحمد المناضـل، إلا أن هـذه الحرية في التمرد زائفة، ومتعقبة من قبل الشرطة والآخـرين بـل أن الشرطة نفسها قد جعلتها تصرخ وتعيش القهر إلي أدني درجاتـه حين انتزع الضابط محمد من حضنها في الصالة، صرخت، مجرد صـرخة وانكرتها عينا محمد. (والصراخ هنا له معنيان الأول: رفض لكل

اشـــكال القهـــر والاستلاب، والمعاني الثاني: الصراخ يفيد رغبة طفليه خفية لكي يأتي الآخرون (وخاصة الأم) للانقاذ من هذا المأزق الجديد (ص ٩).

وقـــد رفضت العودة إلي البيت القديم وعاشت بمفردها ما يزيد عن العام وحيدة في شقتها رافضة أن تعود أو تخضع لنداءات الأم بالعودة حيث بدت العودة إلي البيت القديم خيانة لمحمد لا ندري لم؟ (ص٩)

بيـــت الهـــروب: وصفته "سامية" بأوصاف غامضة، مشتتة "شئ ما غـــريب في المكان كله، الحديقة ليست بحديقة، ما من زهور.. تجمع ما بين مبنيين قميئين، واحد في اقصي اليمين والأخر في أقصي اليسار... واستوقف نظر سامية أعلي المبني اقصي اليمين برج بفتحاته الدائرة، وأحكمت معطفها وهـــي تتســـاءل: أهو برج حمام أم برج مراقبة؟ ومن خلف الفتحات الدائرة طالعـــتها عيـــون لا تغفل ولا تنام ص ٢٣: ص ٢٤. ولعل عدم التألف مع مكـــان الهروب (من رغبة الآخرين في الخضوع) يشير إلي احتدام الصراع في نفس "سامية" بين أن تبقي علي اصرارها في مواصلة الطريق إلي منزلها أو العودة إلي حظيرة الطاعة، وهنا حدث اسقاط لرغباتها الدفينة فلم يحصل مكـــان الهروب (وهو علي أي حال يكون مؤقتا) علي الرضا النفسي وليس هـــذا فحســـب، بل ذهبت بتصوراتها واسقاطاتها إلي أبعد من ذلك، فإذا كان الرفض لمكان الهروب قد تجلي في البداية فلنتابع البؤرة التي ستستقر فيها.. "فـــي عرض الحجرة المواجهة للباب أنحشر سرير حديدي أسود يرتكز علي قطـــع مـــن البلاط المكسور، وتكاد قضبانه تغيب في سقف الحجرة الرمادي المـــنخفض، والـــي اليمين الباب أمتدت أريكة تدلت احشاؤها المعدنية علي الأرض وإلي يساره صوان ملابس تتوسطه مرآة مشروخة يجاورها دولاب ساعة ذات بندول يتحرك جيئة وذهابا" ص ٢٥.

ولعل رموز المكان الجديد للهروب تحمل من معاني النفور ومنها:

أ – بـرج الحمام: ومن أن الحمام رمز للسلام والهدوء إلا إن "سامية" تري البرج وكأنه برج مراقبة محمل بالنذير والرعب والقهر.

ب- الحديقــة: رمز للتفتح والحرية والنماء، إلا أن "سامية" أنكرتها وما هي بحديقــة وهــذا يشير إلي عدم "موضوعية" في رؤية الاشياء كما هي بل تسقط قهرها علي الواقع حتي وإن كان في حديقة غناء.

ج- الســرير: رمــز للهدوء والسكينة والنوم والانكفاء علي الذات من العالم الخارجي بكل ضجة وضجيجة، إلا أن وصفه الصورة، يشير إلي إنعدام الأمن في الانفراد بالذات بمن نحب.

د – المــرآة المشروخة: يشير إلي الذات غير المتماسكة في مواجهة النفس أولا ثــم مواجهــة الآخرين ثانيا او يشير هذا إلي وجود أضطراب في ؟؟؟؟ إلــي أن "سامية" رغم تمردها وطردها من هذا البيت الجديد "رمز لــلحرية" تعــود إليه مرة أخري، والعودة تعني فيما تعني أن الحرية لها مسئوليتها وثمنها الذي يدفع حتي وإن كانت حياتها.

ثانياً: من هو صاحب البيت؟

نــتفق بداية مع ما ذكرته فريدة النقاش (مجلة العربي، العدد ٤٤٦، يــناير من ص ١٣٢: ١٣٧) من أن صاحب "فهو شخصية اشبه اسطورية محمــلة بــالدلالات المــتعددة، وهو الوحيد في العمل الذي يفتقر إلي ملامح واقعيــة شئ ما غريب في صاحب البيت، هذا العجوز؟! هذا الشاب؟ صوته لا يتماشي بحال مع جسده القصير النحيل، بمن يذكرها ولماذا، وهل سبق ان واجهــته بــدل المرة مرات؟ تترك الكاتبة للرواية المزج بينه صاحب البيت وبيــن الشــرطي والواعظ والأب ليصبح كما سيصبح وجوده في النهاية هو تــراث الخــوف مجسدا في شخص هلامي في ملامحه سمات غريبة وغير بشــرية، تمام كما في ملامح البيت المهجور ومرآته المشروخة وأثاثه الأيل للسقوط (ص١٣٦ فريدة النقاش).

وصـــاحب البيت هنا هو رمز لكافة اشكال السلطة التي يخبرها عبر جميع مراحل تطوره، وقد نجحت الكاتبة في تصوير قهر القهر إذ أنه لا فائدة وانـــك إذا هـــربت من البيت القديم حيث الذي يقولبك إلي بيت أخر فسوف تخضـــع لـــلقهر والاستســـلام وكأنه قدر لا فهرب منه أن تخضع وتستكين وتـــتقولب صاحب البيت بمن يذكرها. تقول سامية: بماذا يذكرها هذا الرجل وبمن؟ بالحاكم الوحيد والاوحد (رمز لرئيس وللسلطة بأبيها؟ بواعظ المسجد يهدد بالنار وبئس المصير؟ بالمعلم يطلب أن تفرد يديها ص ٢٧. ولعل هذه الفقـــرة تشير إلي أن سامية قد اسقطت عدائها علي أشكال السلطة: الأبوية/ السياسية/ التعليمية والصقتها بصاحب البيت. وكررت ذلك في ص ٣٢، أنها الصـــقت بـــه سمة "أنا ما بغفلن ولا أنام" (ص ٢٨) كل ما سبق قد جعلها تـــتذكر "مدي كراهيتها لصاحب البيت.. بينها وبين هذا الرجل ثأر قديم؟ أي ثأر؟ اين ومتي وبمن يذكرها وبماذا؟! ولكن الاكيد أن الثأر بينهما بايت، أو أن الاشـــياء لـــن تكتمل حتي تسوية" (ص٧٥). أنها الرغبة في التمرد علي القهـــر والقوالب السابقة الا ولكن قهر القهر أن تعود من حيث أتت وتحتمي بالقهر فرارا منه.

ثالثاً: القهر والمرأة خاصة المرأة المنتمية إلي الطبقة المتوسطة كما "سامية"

بدايـــة نوضح أن المرأة هي اصدق الامثلة علي وضيعة القهر بكل دنيامياتهبيا. أنهـــا أفصح معبر عن العجز والقصور أو عقد النقص والعار. وأبـــلغ دليل علي اضطراب الذهن من حيث طغيان العاطفة وقصور التفكير الجدلـــي، كما أنها رائد الانكفاء علي الذات والتمسك بالتقاليد وضعيتها تمثل أقصـــي درجات التماهي بالمتسلط من خلال ما تعانيه من استلاب. واذا كان الـــرجل المقهور يسقط قهره علي المرأة فأن المرأة لن تتحرر إلا إذا تحرر الرجل. والمرأة هي أكثر العناصر – خاصة في المجتمعات النامية ولا تقول المتخلفة– قهر في المجتمع. حيثما وجد القهر والاستغلال وجدت المرأة، علي

أساس أنها أكثر العناصر قهرا في المجتمع وحيثما وجدت الحاجة إلي حشر كـــائن ما في وضعية مهانة لابد أن يقع الاختيار علي المرأة، بالرغم من أن الطبيعة البيولوجية والتشريحية والفسيولوجية بين الرجل والمرأة لا تبرر أبدا وجـــود مـــثل هذا القهر والمرأة عبر رحلتها ومع اختلاف انتماءها الطبقي تعاني من الاستلاب والقهر وان تعددت صوره واشكاله.

ولـــو أقتصرنا في الحديث عن وضعية المرأة في الطبقة المتوسطة، مـــثل ســـامية، تـــلك الفتاة التي نالت قسطا وافرا من التعليم (تعليم جامعي) وســـمحت لنفسها أن تختلف مع اسرتها وتقترن بزميل مناضل لها ورفضت نداءات الأم لها بل واسرتها و"التي جاءت بقضها وقضية تستردها إلي البيت القديـــم" (ص٩). ذلك لأن وضع الطبقة المتوسطة في عالمنا العربي مازالت تعاني من درجات متفاوتة من المحافظة وأن اختلفت الدرجة (من حيث الكم لا الكيف في هذا وذاك) كما أن هذه الفئة ما زالت تعاني الكثير من رواسب الماضـــي وذلـــك عـــند الكثير من افرادها (سواء ذكور أو اناث)، كما يوجد اخـــتلاف فـــي توزيع الأدوار Roles. فالمرأة تتوق إلي الانطلاق تماما كما فعلت سامية، وحتي حين طلب منها رفيق أن تعد حقيبة ملابسها لكي تهرب مـــع زوجها الذي فر من السجن كانت تتوق إلي معايشة الاخطار بعيدا عن سجن التقاليد والبيت القديم بيد أن علمية التنشئة تضعها أسيرة عملية تشريط مـــزمن ؟؟؟ لتلعب دور الراضخ المقهور، أو دور الاداه، وهي تطمئن لهذا وقـــد أعـــدت له نفســـيا، ولكنه لم يعد يرضيها علي المستوي النفسي وعلي الوعـــي بحقوقهـــا وواجباتها. إنها لازالت محافظة، مقيدة داخليا مع تحرير ظاهـــري، كما أن المرأة في الطبقة المتوسطة تخشي من الاقدام علي تحمل مسئوليتها ومعيرها وفرض ذاتها لما غرس في نفسها من مخاوف بغية ابقائها فـــي حالة تبعية. وتجد في تلك التبعية نوعا من الاستقرار والشعور بالحماية

والأمن في العالم الخارجي الذي صور لها كغول أو كوحش مفترس يتربص بها.

ولـــو حاولنا تطبيق ما سبق علي "سامية" فسوف نجد أن كان تمردا ظاهــريا، ولكنها في اعماقها جبانة، رعديدة، تستند إلي الارتماء في احضان القديــم. حيــث المألوف، وعدم مواجهة الخطر، كما أن الرجل يعزلها عن دورهـــا.. وهذا ما حصل بالضبط مع سامية، إذ تعامل معها "رفيق" وزوجها اســاس أنها "رعناء" يمكن أن تفضح سترهما. ولذا فقد صورت الكاتبة هذه الــلحظات بــبراعة في الفصل العاشر (من ص ٨٣: ٩٠) حين أقتربت من نفسية "سامية" تلك التي خرجت من الحمام وتظاهرت بالنوم "وانصتت لعلهما يتكلمان" ص ٨٥. بيد أن الحديث لم يتم، وهنا تخيلت أو تصورت حوار بين زوجها ورفيق.

كـــان مـــالك أنـــت ومال الجوازة دي؟ والغريب يا أخي أن زملائك حذروك. طول عمرها حتفضل عبء عليك.

سيرد محمد:

أنا كنت فاكر إنها في يوم من الأيام حاتقدر تقف علي رجلها ويسارع رفيق ويقول:

الميت ما يقدرش يقف علي رجلين ص ٨٥.

ورغم أن هذا الحوَار لم يتم، إلا أن اسقاط وجهة نظر النفس في ؟؟؟ عـــلي الاخـــر، وكأن الآخر هو مصدر هذا الكلام دليل واضح علي الأدوار والوعي بها، والصراع بين الرغبة السطحية في التمرد إلي اقصي درجاته، والرغـــبة الدفيـــنة. فـــي الاستطانة والاستلاب والخضوع للقهر إلي أقصي درجاته.

ثم تتخيل حوار أخر (ص٨٦).. ثم يصل الصراع إلي مداه فتصرخ "أنا حاتخنق هنا" ص ٨٦.

ولعل هذه العبارة تفيد الرغبة في الفرار والعودة إلي البيت القديم بكل ما يحمله من دلالات سبق وأن أوضحناها.

ثم يصل الصراع إلي قمته حين تقول لمحمد في هدوء وكبرياء :

أنا عايزة أروح.

وأدركت سامية في ذات اللحظة أنها لأول مرة منذ التقت بمحمد تعبر عن رغبة غير رغبته. رغبتها هي الخاصة والشخصية ص ٩٠ مما يدحض الرغـــبة في استمرار التمرد. تلك الرغبة التي أخذت شكل متشنج فرغم أنها ظاهـــريا تثور علي صورة المرأة (الأم). وترفض كل رموز الماضي، وكل وظـــائف دورها التقليدي، خصوصا دور المرأة المستلب اقتصاديا، ودور آله التفريغ والانجاب (ويا خبر لو كانوا اطفال ذكورا)، هنا الثورة تجعلها تحتذي بالـــنموذج الرجل، نموذج التحرر والانطلاق، فتحاول أن تقلده (رغبة زيادة فـــي التمرد والثور علي السلطة قلدتها، وقد خضعت له ولرفيقه رفيق إلا أن ذلـــك ليس حما لانهاء الصراع، لانها تعيش حتي النخاع بين الخوف من أن تخسر أنوثتها (تلك الأنوثة التي تجذب إليها الزوج وتضمن استمرار مكانتها في قلبه (خاصة الزوج) أو تتصرف تصرف الذكور. وقد عبرت سامية عن هـــذا الموقـــف، وعبر العديد من المواقف بضرورة أن تتقن الألعاب، العاب عالم الرجال، وخاصة تلك اللعبة التي اجادها ببراع صاحب البيت وهو يبالغ ويزيف من الأشياء المهملة / المهجورة التي يحتويها البيت أو أن شئت الدكة الحجرة) مثل قوله أن الماء الذي يقطر من الصنوبر "مياه معدنية كما قررت كـــثيرا عـــبارة "لعـــب يلعب فهو لاعب" ثم نجدها في النهاية تقرر الهروب وتقول: "قررت أني مش قد اللعبة دي" ص ٩٥ ذلك لأن هذا اللعب والتماهي بـــدور الـــرجل وتعرضه للاخطار قد "تساءلت سامية هل تحولت إلي المسخ الـــذي ارادوا لهـــا أن تكونه مسخ بلا جذور ولا دوافع يتحرك؟ تربية العمر أثمـــرت، الـــنفي عن العيون والقلوب، العزلة والحرمان، الضرب والتهديد،

الوعــد والوعيــد، الــلوم والعقاب، الهمس في الاركان، الويل لمن يختلف، الطــريق مع الرفاق مرسوم كما في البيت القديم، الويل لمن ينفرد" ص ١٥.
أهناك أجمل وأنصع من العبارات السابقة الحادة/ الواضحة والتي عبرت عن مــأزق الــتمرد والانصــياع كما أن "سامية" مازالت أسيرة للجانب الجسدي واغــراءاته، ورفض التمرد علي هذا الجانب، أنها رغم تمردها وقد نجحت ظاهــريا فــي بعض المظاهر- إلا أن التربية ما زالت غاصة في احشاءها وتلقــنها درس: الاغــواء، وخاصة الاغواء الجسدي والجنسي. ولقد عبرت سامية بصدق عن هذا المأزق في الفصل السادس (من ص ٤٩: ٥٨) إذ بعد أن خــرجت مــن الحمام، واستلقت إلي السرير تخيلت أن يسرع إليها محمد يفرغ أشواقه، بيد أن هذه الامنية / الرغبة لم تتم، واستخدمت دهاء الانثي في الاغــواء وحيــن لم تجد استجابة لنداءها الداخلي وصرخاتها في الوجه ماذا فعلت.

وأنقضت سامية علي محمد في حركة مفاجئة تتعلق في عنقه بجنون، وشــعرت بوجهــه يــنحرف لوهله عن وجهها، وبجسد يتصلب لوهله تحت صدرها، ودفنت رأسها في صدره ... وتلقت سامية قبلاته، قبلة صغيرة بعد الأخري بشفتين جافتين، وعادت تدفن رأسها في صدره... وهمس محمد فقال لسامية مالك يا حبيبتي... إنت مش طبيعية خالص هذا الموقف الرافض من قــبل الآخر (الزوج) لم تريد أن تجرده والرغبة في أن تحاوره (عقل لعقل) وليــس (جســدا بجســد) قد تقلق علي هذا الدور الانثوي... ولذا فقد عبرت الكاتبة بحدسها عن هذا الموقف... إذ تتساءل كل فترة "وسؤال من الذي يلح علي الخاطر من جدي وخبئيني يا أمي أنا لا شئ. بالظلم وشريني وصرخت سامية قائلة:

مستحيل .... مستحيل (ص٥٨).

فالفشل في الدور الإنثوي، وكذا دور الزوجة، مع التركيز علي أن مجرد جسد يشتهي أو مجرد وعاء جنس. هذا الفشل يجعلها ترد لاشعوريا إلي الانكفاء إلي حضن الأم، تلك الأم التي أهتمت بالجانب الجسدي وابرازه علي حساب جوانب أخري. ولعل طرح سؤال "من أنا" يشير إلي فقدان الهوية، وعمق الصراع بين الصور المتناه والصور والواقعية.

لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع:

١- مصطفي حجازي: التخلف الاجتماعي- مدخل إلي سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٧٦ خاصة فصل وضيعة المرأة من ص ٣٠٥ : ٣٤٧.

٢- فرج أحمد فرج: أسس علم النفس، سعيد رأفت، ١٩٧٩، القاهرة.

٣- محمد حسن غانم: أزمة الوعي لدي المرأة المثقفة - حالة نوال السعداوي، قيد النشر ١٩٩٧م.

رابعاً: طبيعة التمرد علي السلطة وفائدة ذلك علي البناء النفسي للمرأة والرجل.

بداية نؤكد أن السلطة تعد من الموضوعات الأساسية التي تلعب دورا هاما في حياة كل فرد. فكما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الأخريين، بل لابد له من التواجد مع الأخريين بدرجة ما، وحتي في حالة عدم الحضور الفعلي للأخر- كما بين ذلك التحليل النفسي، وكما عبرت سامية من خلال نكوصها إلي مراحل متعددة في بناءها النفسي وخاصة حين كانت طفلة ومراهقة - نجد الفرد يتواصل علي الأخر علي المستوي المتخيل.

وإذا كان الفرد يحتاج أشد ما يكون الاحتياج إلي السلطة الوالدية والتي تحوله من "مجرد مشروع للوجود" إلي وجود كامل له شرعية وأهلية فإن ذلك الوضع يؤكد أهمية الخضوع للسلطة الوالدية، ثم بعد ذلك يخضع

للسلطة التعليمية وسلطات المجتمع الأخري سواء أكانت سياسية أو دينية أو شرطية أو قضائية ... وهكذا.

وتقوم السلطة بدور هام ورئيس في عملية التشريع والضبط الاجتماعي والذي وجد كقوة فعالة في تنظيم السلوك الاجتماعي الثقافي، وقد لا يعي الفرد أهمية الالتزام بالمعايير، وحين يخالف هذه القوانين يحتك مباشرة بالشكل العنيف للسلطة، والتي قد تمارس معه أشكالٍ من القهر والعنف حتي يعود إلي حظيرة المجتمع طائعا، خاضعا، نادما، فكما أن الفرد محاط بالغلاف الجوي، فهو ايضا محاط بأشكال الضبط الاجتماعي من الميلاد إلي الوفاة، والذي ربما لا يكون مدركا له ما لم تقوده تجربة غير عادية للتعرف عليه (لمزيد من التفاصيل أنظر:

محمد حسن غانم: ديناميات صورة السلطة لدي المجونية دراسة نفسية مقارنة، ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩٠).

فالخضوع للسلطة هام وضروري في البداية لكي ينمو الفرد وتكتب له أن يعارك الحياة، بيد أن درجات الوعي المختلفة تجعل الفرد يدرك أن هناك "حياة أخري" لابد أن يناضل من أجل أن يحياها وهنا تأتي كافة الحركات الثورية علي أنظمة المجتمعات، سواء أكانت انقلابات أم ثورات أم حركات يسارية أم يمنية أم متطرفة دينيا أم حتي دنيويا (الرغبة في التمتع بممارسة كافة أشكال المتع دون قيود مثل حركة عبدة الشيطان مثلا)، وليس هذا فحسب بل غير منظرين تعد حركة أو فعل، محاولين قدر الإمكان ضم العديد من الآخرين إلي ثورتهم أو حركتهم وهنا يكون "دور السلطة" في التصدي لمثل هذه الحركات التي قد "تقلب النظام رأسا علي عقب". وبقدر الإيمان بقضية حركة التمرد تلك يكون الرفض أو القبول، علما بأن كافة الحركات الثورية المقبولة الأن، كانت في فترة ما مرفوضة وتعمل تحت الأرض وفي سرية تامة، ومن خلال النضال بين القديم (بكل مؤسساته وحتي

دســتوره وقوانيــنه) وبيــن الجديد/ الوليد والذي يطمع إلي التغيير والثورة والعمل علي استقرار العدالة من أجل حياة إنسانية راقية للآخرين لكن المأساة أو المشــكلة أن الجديد بعد أن يتمكن، ويقضي علي القديم، بل ويحارب كافة صوره وأشكاله، يتحول هو الآخر إلي قديم مستبد يحارب كل جديد، ويحاول اقــناع الآخرين بأن يعمل لمصلحة الجميع. وهكذا ومن خلال الصراع دوما بيــن القديــم والجديد تتحرك الحياة وتتدفق المياه، وتتجلي عبارة الفيلسوف اليوناني القديم بأن لن تنزل النهر مرتين ويغمرك نفس المياه، لأنه في المرة الثانية سوف يغمرك مياه جديدة غير المياه التي غرمتك في المرة الأولي.

ولعل أمثلة التاريخ ووقائعه وإعادة تذكرها تتجلي في كل ما سبق أن أجملناه.

تــلك كــانت أبرز "القراءات" النفسية لرواية لطيفة الزيات: صاحب البيت.

قــــراءة نفسيـــــة للمجموعة القصصية

وادى السلطـــان

لإسماعيل ولي الدين

٨- قراءة نفسية للمجموعة القصصية "وادي السلطان"

لاسماعيل ولي الدين(*)

إسماعيل ولي الدين مهندس معماري قبل أن يكون كاتب روائيا مغرم إلــي أبعـــد الحدود بفن العمارة، وتحديدا في العصر التركي والمملوكي وما خلفــته هــذه المرحلة من آثار معمارية مازالت شاهدة علي عظمة هذا الفن حتي الأن. ولذا فإن عينيه تلتقط المشهد المعماري ثم يأتي بأحداث تدور قرب أو فـــي هذا المشهد، كما يدل علي ذلك عناوين بعض مجموعاته القصصية مثل حمام الملاطيلي – الاقمر – حمص أخضر حارة برجوان وغيرها .

إضـــافة إلـــي ســـيطرة الجنس بشقيه الشهوى والحنون، مع سيطرة الجانب الشهوي علي أبطاله حيث نجدهم يتخلصون من توتراتهم في ممارسة الجـــنس، علما بأن المبالغة في ممارسة الجنس هي نوع من العدوان الموجه إلـــي الذات في مواجهة الواقع المحبط بكل تناقضاته، وذبح الاحلام الوردية تحت عجلات السرعة اللاهثة وتهتك العلاقات الإنسانية، والحنين إلي الدفء المفتقد في الأيام الخوالي والنسبية في كل شئ، إضافة إلي أن كل شئ أصبح يقيـــم بالمال، وان الموروث والأصيل يهدم، وتفرض العشوائيات والمباني – وايضـــا الاخلاق والقيم بلا اساس ولا جذور وهي مقدمة مختصرة جدا لعالم إسماعيل ولي الدين القصصي أضافة إلي العديد من السمات والتي نرجو أن يتاح لنا المجال لابرزها في دراسة اخري مستقلة.

فـــي قصـــة "وادي الســلطان" نجد إسماعيل ولي الدين ينتقل بعالمه المعمـــاري إلي منطقة الوادي الجديد حيث الواحات والابنية المعمارية ذات الطـــرز القديمة والجميلة لدرجة أن بطل هذه القصة "حسن عسكر الهلباوي"

(*) اسماعيل ولي الدين (١٩٨٨). وادي السلطان (مجموعة قصصية) كتاب اليوم العدد ٢٨٦ ص ص ٣:٣٩ مؤسسة اخبار اليوم.

يـــترك مهنة التدريس وينتقل للعمل مع معماري الصحاري التي كان يرأسها العسكريون، وحسن فتحي الذي كان يبني من قبل قرية القرنة بعتابها البيضاء مســتخدما الطـــوب النئ(ص ١٠) وهي نقلة وأحداث ربما تكون جديدة في عـــالم اسماعيل ولي الدين حيث ينتقل من القاهرة القديمة وازقتها وحواريها وناســـها الفـــارقون فـــي صراع مع شراسة الواقع وشراسة التغييرات إلي الصحراء وتحديدا منطقة الوادي الجديد.

والقصـــة باختصار تتحدث من "عسكر الهلباوي" من اسيوط وحصل عـــلي دبـــلوم في الفن والزخرفة (ص ٦) ونتيجة لمقتل والده في حادث ثأر ومطالـــبه والدتـــه اياه- علي أساس أنه أكبر أخوته- بالثأر لوالده ، إلا أنه يهرب إلي واحة الدخلة الغربية، بل ويتزوج أجمل فتيات الواحة "مليحة" تلك التي نعرف – من سياق السرد- انها غريبة عن الواحة لان والدتها فرنسية، ثم يقرر عسكر الهلباوي ترك مهنة التدريس وهل وصل به الضعف والهوان والـــتردد واللامبالاة إلي هذه الدرجة؟ ولماذا أنقلب الوحش/ الأسد/ النجم إلي هذا الحطام/ الهزيل/ الجبان/ الرعديد؟!

كـــل ذلك وغيره من تساؤلات أنما تكشف بجلاء وعمق ما تمور به النفس الإنسانية من أمال ورغبات وأحباطات وعقد.

فـــي الـــبداثية ويعمـــل مقاولا ثم يعلو نجمة نتيجة تعرفه بالمسئولين واجادته نفاقهم، ونتيجة لذلك يطلب منه أن يرشح نفسه عضوا لمجلس الشعب عـــن الوادي الجديد، إلا أنه نتيجة لعصبيته الشديدة لا يرشحه الحزب لدورة جديدة، ثم نغوص في عالمه الأسري فنجد الفتور البدني والعاطفي بينه وبين زوجـــه، وأن أولاده الأربعـــة: طارق – سمية – فتحية – ونيسة، اصبحوا مبـــتعدين عـــنه.طـــارق ببلادته وتناوله لشراب اللجي المسكر، والذي تولي مسئولية اعمال والده عقب توتره واغراقه في الشراب، والذي ضيع كل شئ والمأساة التي يرسمها اسماعيل ولي الدين تتجلي في أن المطلوب من عسكر

قتله هو في نفس الوقت "اعز اصدقاءه" أدهم المتين، والذي هرب بدوره إلي جبال اسيوط حيث يعيش المطاريد، بل ويطلب منه عسكر أن يحضر إليه ثم يحـدث تعلق بين الصديق والزوجة نتيجة للفراغ العاطفي الذي يحدثه فراغ عسـكر وكـثرة تنقلاته وانشغاله مع المسئولين. ورغم أن أدهم بداية يهرب ويذهـب إلـي مكان أخر ويبني فندقا خاص به، إلا أن "مليحة" تقرر الهرب إليه، وتنشأ بينهما علاقات جنسية يعلم بها أخير عسكر الهلباوي ووسط سكره وهذيانه يبحث عن زوجه فيجدها عارية في أحضان أخلص اصدقاءه فيقتلها (فقط دون قتل العشيق والصديق والمطلوب أن يقتله انتقاما لثأر والده).

ويـتم توثيقه حتي يحضر البوليس صباح اليوم التالي ليجد أن عددا كـبيرا من رواد الفندق قد ماتوا لتناولهم خمر مسموم ذلك الذي اعدته زوجه لـه، إلا أن لم يشربه، وينتهي به المطاف إلي المستشفي ثم يعود مرة أخري إلي حجرته القذرة في منزلهم القديم. وأدهم المتني يودع في السجن لمحاكمته علي جرائمه السابقة ابان فترة تواجده مع المطاريد في الجبال.

تلك كانت باختصار الحدوتة/ القصة التي قدمها اسماعيل ولي الدين مـن خلال مسرح معماري في منطقة الوادي الجديد، وتحديدا وادي السلطان وأثارها القديمة المملوكية والعثمانية والتي يرجع بعضها إلي أيام هجوم قمبيز وجيشـه عـلي سكان الواحة القدامى، والذي فشل فيه بعد أن فاجأته منطقة القرد المشهورة في الواحة (ص ٣٩) والقصة تثير العديد من التساؤلات التي تبحث عن تفسيرات نفسية:

١- لماذا رفض عسكر الهلباوي الثأر لوالده؟

٢- لمـاذا تدهورت أمره وهو في أوج مجده بعد أن زار والدته في مرضها الاخيـر ولعنته فتدهورت كل أموره وسار بعد ذلك في طريق التدهور والانحلال وإدمان الخمر واللامبالاة؟

٣- لمـــاذا أسـتدعي صديقه أدهم المتني وهو المطلوب منه أن يقتله انتقاما لمقتل والده؟

٤- لماذا تزوج "مليحة" الفتاة الغريبة من الواحة، ولماذا تدهورت علاقته بها بصورة واضحة وجلية، انتهت بأن تركته وهربت إلي صديقه ثم قدمت لــه الخمر المسموم لقتله، ثم انتهت الأحداث بأن قتلها بمفردها دون قتل العشيق والصديق؟

٥- ما سر الاستغراق الشديد في العمل دون مراعاة لإقامة التوازن المطلوب بين متطلبات الذات، ومتطلبات الغير؟

٦- لمـــاذا ظل متعاميا- وهو يعلم - عن خيانة زوجه مع صديقه قدر من الزمن؟

٧- لمـــاذا تـــرك مهـــنة التدريس- بكل دلالتها التربوية، وأنخرط في سلك المقـــاولات، ولمـــاذا علا نجمه سريعا بصوره أهلته لدي المسئولين بأن يرشحه الحزب لمجلس الشعب؟

تلك كانت أهم الاسئلة التي تبحث عن إجابة أو تفسير حتي وأن كانت هــذه الأحـــداث قد حشرت حشرا لتمثل علي مسرح المكان المعماري- ذلك المســـرح المفضـــل لــدي اسماعيل ولي الدين. ذلك لان كل ما يصدر عن الإنسان من سلوك- سواء اكان شعوريا أو لا شعوريا- لابد أن يكون محتوم المعني والدلالة.

ولعـــل الإجابة عن التساؤل الأول حول رفض عسكر الهلباوي للثأر من قاتل والده، فسوف نذكر أنه قد تعلم وترك قريته "تنيده وخالط أهل البندر ولكـــن هـــذا المبرر الذي قدمه ولي الدين عن رفضه للانتقام من والده سبب واهـــي. ذلك أن التعليم بطريقة الحفظ والتلقين- ما هو إلا قشرة سرعان ما تتلاشي أمام جبروت العادات والتقاليد، لابد من البحث عن سبب أخر، اشار اليه ولي الدين عرضا إلا وهو موقف عسكر السلبي من والده "إذ كان ينظر

إليــه علي أساس أنه مراهق ويغازل الفتيات الصغيرات مواريا عجزه وانه كان يصاحب أجيرا، حقيرا، ولولا الافدنة الخمس التي حصل عليها من عبد الناصر لكان حاله لم يتغير" ص ٩.

وتقودنـــا قضية الثأر– في صعيد مصر– تحديدا إلي إثارة عددا من التساؤلات:–

أ – كيف ينشأ الثأر؟

ب– طقوس وتقاليد الثأر؟

ج– الاطراف التي تسعي جاهدة إلي استمرار الثأر؟

ولعــل الدراســة الــتي قام بها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في قرية بني سميح بمديرية اسيوط، والتي نشرت عام ١٩٦٠وكذا التحليل النفسي الذي قدمه احمد فائق (١٩٨٢) استنادا إلي نتائج هذه الدراسة الانــثربولوجية هــام ومفيــد جدا في القاء الضوء علي هذه الظاهرة وتفهم ديناميانها وقوانينها– مما لا يسمح المجال هنا بالاستفاضة فيه، لكن لعل أهم الملاحظــات أن الأمــر– رغــم سلبية دورها علي السطح– تكون المحرك والــباعث علي عملية الثأر، وإذا نشأت علاقة ثأرية بين بدنة الزوج وبدنة الزوجة فأن الزوجة في هذه الحالة تكون في موقف حرج تجاه اسرة زوجها، وإذا كانت الزوجة لم تنجب فأن امامها موقفين:

أ – أما أن تعود إلي أسرتها.

ب– أو تظــل في أسرة الزوج لكن يتم اخفاء كافة الأسرار والخطط عنها حتي لا تفشي باسرار إلي اسرتها.

أما إذا كانت الزوجة لها أولاد فإنها تنحاز إلي أولادها في حقهم في أخــذ الثأر، بل يصل الأمر إلي درجة أن الأم قد تحرض ابناءها علي الثأر من اخوتها انتقاما منهم زوجها.

وقد صبت الأم غضبها ولعناتها علي الأبن لهروبه وتقاعسه عن عدم الأخذ بالثأر، هذا الدور الحيوي للام – قد أبرزه ايضا يحيي حقي في رائعته البوسطجي، ولعل هروب عسكر الهلباوي من الحاح الام في طلب الثأر يعني ضمنيا رغبة عسكر الهلباوي في وفاة والده، وأن صديقه قام بما كان يود هو القيـام بــه، لقد توحد بقاتل والده، ولذا فبعد أن هرب رافضا قتله، وبعد أن اسـتقر بــه المقــام، أخذ يتنسم اخبار صديقه/ القاتل لا كي يعد العدة لقتله والانـتقام لوالده المقتول، وإنما لكي يطلب منه ويرجوه أن يسرع للقاءه لأنه في أشد الحاجة والشوق إليه.

أمــا لمــاذا تدهورت أموره بعد أن زار والدته في مرضها الأخير ولعنته لانه لم ينتقم لمقتل لوالده، فذلك يوضح أنه في أعماقه طفل/ اعتمادي/ يخشــي الاستقلال، ولعل المبالغة في العمل ومواصلته ليل نهار حيلة دفاعية يـلجأ إليها الفرد المتوتر/ غير المتوافق لا شعوريا في محاولة للهروب من المواجهــة الصريحة مع النفس، وقد كشف ولي الدين بحدسه الثاقب كيف ان عســكر وهــو في أوج مجده– عضو في مجلس الشعب– حين علم بمرض والدتــه ووفــاة أخيه الأصغر في حادث تصادم يذهب إليهم بعربته الفارهة ذاهبا إلي دورهم الفقيرة، وحين اقترب من والدته يريد أن يقبلها حتي فزعت في وجهه ودعت عليه باللعنة الابدية، ولم تدع رحمة الله تنزل عليه.(ص٣١) هذا الموقف كان القشة التي كشفت زيف توافقه ونفاقه ونجاحه الهش، وكان أشبه ما يكون بتكنيك "المواجهة"– كأحد فنيات العلاج النفسي– والتي تهدف إلــي أن يقف الفرد وجها لوجه مع نفسه، ولعل آلام المواجهة قد تعيد الفرد إلــي صــوابه أو قــد تكون القشة التي تطيح بتوافقه الهش، ولكن ما تم مع صاحبنا عسكر الهلباوي كان استمراراً لحالة الانتكاس وتدهور صورة الذات او الاســتغراق أكـثر في الشراب، ولعل الدراسات التي تناولت سيكولوجية

المـــتعاطي قد كشفت أن المتعاطي في داخله انسان اعتمادي/ عاجز/ يرغب فـــي لفـــت أنظـــار الآخـــرين/ بداخله خواء/ غير متوافق مع ذاته ولا مع الآخـــرين/ متعـــلق بالأم ..الخ. وهي صفات تنطبق الي حدا ماعلي عسكر الهلـــباوي، فرغم هروبه من أن يأخذ بالثأر لأبيه، ورغم نجاحه في العمل، ورغـــم نفاقه للمسئولين، ورغم زواجه من أجمل فتيات الواحة، إلا أنه كان بداخله يعاني من أزمة الاعتمادية، ومحاولة المبالغة في سلوك الرجال وكلما صرخ الطفل بداخله مستجيرا طالب الارتماء في أحضان الأم كان يهرب منه بمزيد من الاغراق في العمل أو في الشراب أو في النفاق، بيد أن محاولات الهـــروب لابـــد أن تكون محدود. حتي أنكشف زيف كل ذلك فيما بعد. وقد أبـــانت زوجـــة في حدس صادق في حديثها مع عشيقها "أدهم الوتيدي" عن مربط الفرس وعقدة زوجها حين اكتشفت "زوجي يحبك" ولكنه ضعيف. ترك الثأر لأهله. لأنه كان لا يستطيع أن يتقلك أو يقتل نبابة لها أجنحة ص ٢٧.

كمـــا تكشـــف أيضا عجز – عسكر الهلباوي- الحبس مع زوجه بل وهـــروبه من ذلك، بالرغم من أنه حاول جاهدا الهروب من العجز باللجوء إلـــي حيلة دفاعية تسمي التكوين العكسي Reaction- Formation (وهي سمة من سمات الخُلق أو السلوك نشأت كرد فعل علي ميل غريزي مرفوض لدي الانـــا وينـــتج عن عملية كبت سابقة ويدعم وجودها) حيث بالغ في الاتصال الجنسي بزوجه وأنجب أربعة أولاد، وحين بدأ الميكانيزم يضعف ويتهتك بعد مواجهـــة عسكر الهلباوي لأمه أنصرف عن زوجته، لذا نجد الزوجة- مرة أخـــري- تكشـــف بحدس مبهر حقيقة أو أزمة زوجها لصديقها وعشيقها في نفـــس الوقت"أدهم الوتيدي" قائلة له: "لم يعد زوجي.. عنده اعماله ومشاريعه ومسئولياته ومقابلاته.. أصبح لا يهتم بي منذ زمن. لقد أنجبت له أربعة أولاد علي مدار ست سنوات، وبعدها لم يقربني.. لم يعد يراني سوي دابة في حقل

أو خادمة تعتني بضيوفه أو تكنس المضيفة انتظارا لاستقبال مجاميع أخري، لا أعرف ماذا سيصل به هذا الطريق" ص ٢٧.

كمـــا أن مأساة زوجه أنها هي الأخري كانت تشعر بالغربة فإذا كان زوجهـــا قـــد هـــرب من الثأر، ومن عجزه وضعفه واعتماديته الكامنة في الاغراق في العمل والنفاق، فإن الزوجة هي الأخري قد هربت إلي الجنس، ذلك لأن والدتها فرنسية وتشعر أنها لا تنتمي إلي سكان الواحة، كانت تمتلك صـــفات جســـدية رائعة جعلت فتيات ونساء الواحة يهربن منها. وهنا التقي "الغريـــبان –عسكر– مليحة" الهاربان، وكان من الممكن أن يواجها معا هذا المأزق معا في محاولة للتغلب علي أزمة كل منهما إلا أنهما للأسف قد غرق فـــي مأســـاتهما. وهـــرب الزوج إلي تعاطي المخدرات واللامبالاة، وهربت الـــزوجة خلف صديق زوجها لتقيم معه علاقة جنسية واضحة دون عمل أي احـــتياطات للزوج أو لشعوره أو حتى شعور أولادها ومعارف زوجها. وهنا نأتي إلي أهم سؤال: لماذا وضعت السم في الخمر لزوجها وكانت سعيدة جدا مبشـــرة عشيقها بوضع الشراب المسكر لزوجها وقدمته له بنفسها بعد طول جفـــاء، وغـــرقت بلامبالاة ولا مراعاة ادني شروط الاحترام– ولو شكليا– لـــزوجها. ولعل الرغبة في قتل الزوج إنما كانت تهدف إلي التخلص من هذا الزوج وإلي الرغبة أيضا في أن تقتل في نفسها ذلك الجزء المعطوب، وإلي الهروب من الغربة ومن الاعتمادية ومن الضعف، وإذا كانت الزوجة صادقة فـــي ذلك ولجأت إلي حيل الأنثي التي لا تخيب من حيث التودد وتقديم السم فـــي الشـــراب، إلا أن الـــزوج استشعر بلا شعوره السم المنقوع في الخمر ورفضـــه، وكان يريدها كأنثي وكامرأة واستسلام تام للغربة والضعف، فجد فـــي الـــبحث عن زوجه، وتوقع ما ظنه– أو ما أستمر يتجاهله– كانت بين أحضـــان عشـــيقها/ صديقه. "ولم يعرف ماذا يفعل، فأطبق علي رقبة زوجه

حـتى جحظـت عيـناها وانفجر الدم غزيرا من بين شفتيها، ثم ركع علي الأرض يـبكي نفسـه وحاله من العدم" ص٣٧ وهنا يثور التساؤل لماذا قتل الـزوجة ولم يقتل العشيق؟ وهو في نفس الوقت الصديق/ الخائن/ المطلوب قتله ثأرا لوالده.

أن عـدم قـتله (لقاتل والده – ومغتصب زوجه) إنما يشير ويذكرنا بذلـك الـتردد الشـهير الذي عاشه معاملات بين أن يقتل عمه (قاتل والده والمستولي جنسيا وجسديا لوالدته).

وكأن بعدم قتله لهذا الشخص إنما يشير في التحليل النفسي النهائي أن هذا (القاتل والمغتصب) إنما قام بما كان يود الشخص القيام به عاكسا العقدة الاوربيـه والـتي تتمـثل – كمـا يـري التحليل النفسي – في رغبه الفرد اللاشعورية الدفيفه إلى: قتل الأب (الفريم/المنافس) والاستيلاء علي الأم رمز (الحياة/الامتداد/امتلاء الوجود/ الهروب من الخواء والعدم).

والقصـه فـي مجملها نطرح العديد من التساؤلات، وتمرض العقل للاستبصـار، وتجعلـنا فـي دهشة من هذا السلوك الإنساني المعقد وتكشف بأضواء باهرة: مأساة الإنسان.

قــراءة نفسيــة لروايــة

عصــر واوا

فــؤاد قنديـل

الخـــارجون علي القانون والذين استطاعوا في غفلة من الزمن – ولظروف مـــتعدده سواءاً كانت سياسية واجتماعية واقتصادية وتاريخية- من الظهور وبعنف علي ساحة الاحداث، كما أن كلمة "واوا" تعني أن هناك جرح أو نمو غير طبيعي يؤلم الإنسان، لأن "الواوا" بيئة ببتكدس فيها "القيح والصديد" وكل الافـــرازات الـــتي يجـــب أن نـــلجأ إلي العنف معها حتي نتخلص من هذه الافرازات والا استشرت في الجد كله، واصابته بالمعات أو البتر أو الحطام.

ولعل أهم القراءات في القصة / الرواية الآتي:

١- قضـــية الاغتصاب Rape إذ كانت سناء عائدة من عند أختها "صحراء" اســـتقلت تاكســـيا، حتي أخذها في مكان وأدعي أن حدث عطل في السيارة وخيـــرها بين أن تستمر خمس دقائق ريثما ينتهي الكهربائي من الانتهاء من مهمـــته حيـــث أن "الكـــتاوت فيه شحن زيادة ويحتاج إلي ضبط لمدة خمس دقـــائق" أو تأخذ تاكسا أخر إلا أنها استمرت معه، ومضي يدفع السيارة بيد ويقـــود المقود باليد الأخري، وطلب منها أن تنزل وحين ذاك "أنقض عليها. كتم فمها بيده وحملها إلي المبني المظلم والقها علي الأرض.. أخذت تضربه وتدفعـــه بيديهـــا وقدميها ثم صرخت، لكنها أكتشفت أن الهرب لن يجدي.. مضـــت تخمشه بأظافرها، وتعضه باسنانها وهو ماضي في جنونه ولهاثه لا يحـــس بمـــا تفعله (ثم انتقلت من الضرب أو التعامل مع المستوي الجسدي/ الـــبيولوجي) إلـــي مســـتوي أكبر وهو مخاطبة العقل واللجوء إلي التهديد. صرخت فيه:

- أنـــا زوجي ضابط بوليس وسوف يقتلك ويشرد أهلك قال لها الجبل الذي يجثم علي صدرها دون أن يهتز كلهن يقلن ذلك.
- عادت تصرخ عاليا: البطاقة في الحقيبة. إنه ضابط أقسم لك.
- طظ.

جمعـــت ترابا بحفنتها وعفرت به وجهه لم يعبأ رفسته بركبتيها في بطنه.. لم يتأثر. ألصقت فخذيها حتي أصبح فخذا واحدا قويا ككتلة من حديد. لـــم يطل الوقت حتي أصبح فخذاها منفصلين سرعان ما دخل بينهما.. أخيرا تمكن من كل ما تملك" (من ص ٦٥ ص ٦٦).

وقـــد حرصت علي أن أورد كافة تفاصيل الاغتصاب والمقاومة من كلا الطرفين حتي يمكننا أن نتحدث عن جريمة الاغتصاب Rape لكن ماهو الاغتصـــاب؟ هو أتصال غير مشروع خالي من الرضا. ولم يحدد القانون جنس من يقع عليه الاغتصاب لأن الاغتصاب قد يحدث من رجل لرجل (أو لطفـــل أو لشاب) أو من امرأة علي رجل، أو امرأة لامرأة، أو رجل لامرأة وهـــذا أكـــثر الحـــالات شيوعا، وربما كان وراء الشيوع هو عملية "ابلاغ الشـــرطة" ويـــتم فعل الاغتصاب لاسباب متعددة فقد يكون الدافع لاغتصاب رجـــل مـــن قـــبل رجـــال آخرين ولتنفيذ أوامر عليا، من قبيل (كسر عين) المغتصب، تماما كأن يريد الباشا (لواء الشرطة السابق) في اغتصاب زوجها شـــريف وذلك لارغامه علي سحب البلاغ إذ أتي ستة وعشرون رجلا، أقام لهـــم مـــائدة بهـــا طعـــام فاخر وخمر وحشيش، كل ذلك من أجل أغتصاب الضحية، بل وأتفق كذلك علي ضرورة تصوير هذا المشهد الجنسي الفاضح. ســـتة وعشـــرون رجـــلا يغتصبون (استاذ التاريخ) من أجل أذلاله وقهره، والرضوخ لمطالب الباشا – (من ص ١٣٩- ١٤٢)- او كما يتم الاغتصاب للرجال وخاصة هؤلاء المسجونين سياسيا بهدف الامعان في اذلالهم، كما أن اغتصـــاب الرجال يتم في المجتمعات التي لا يتم فيها الاختلاط كالسجون أو المعتقلات.

لكـــن يظـــل رغـــم ذلك "شيوع اغتصاب الرجال للنساء" بالرغم من صعوبة البحث في ذلك، فالرجل عادة يختفي، والمرأة الضحية تريد أن تنسي وتســـلو جـــراحها باقصي سرعة حتي تعود إلي نفسها وإلي مجتمعها، ولكن

رغم ذلك تظل هذه "الحادثة" جرح غائر في نفسها من الصعب أن يلتئم ولكي يكــون الحديــث أكــثر تحديــدا سوف تتحدث عن طرفي العلاقة في فعل الاغتصاب أقصد الجاني والمجني عليه.

سيكولوجية الضحية:

يعــتقد الــبعض أن الاغتصـــاب لا يمكن حدوثه بدون رغبة المرأة وموافقــتها ضمنيا أو أن المرأة يمكنها منع اغتصابها بطرق كثيرة إذا شاءت وكانت مخلصة في رفضها.

وهــناك رأي أخر يذكر أن بعض النساء من النمط "الهستيري" يكن لعوبــات ومحرضات للرجال بطبعهن، ويبحثن دون وعي منهن عن متاعب الاغتصاب، ويلاحظ أن بعض المجتمعات تشجع البنات ضمنيا علي السلوك الانــثوي الــناعم حتي يكن مرغوبات من راغبي الزواج. ولكن هناك فرق كبير بين الاثارة الجنسية غير المقصودة والتحريض علي الاغتصاب. وهناك حالات تكون فيها المرأة رافضة رافضا باتا حتي ولو لم تقاوم مغتصبها. في هذه الحالات يكون المهبل جافا ومتقلصا مما يستدعي ايلاج القضيب بالقوة، وهــذا يحدث ألما مبرح وتهتك داخلي فضلا عن الرضوض الواضحة علي الجسم مما يثبت جريمة الاغتصاب.

فهل كان في "سلوي" / الضحية مما جعل لعاب "سائق التاكسي" يسيل باغتصابها ؛ نظن أن الجاني يلتقط بغريزته نفسية الضحية ويحاول مسايرتها حــتي يقــع فعل الاغتصاب ومن القصة يتضح ذلك، فرغم أن تعلل بوجود عطل في السيارة وخيرها بين أن تبقي حالما يتمكن من أن يصلح العطل أو تــنزل لتستقل سيارة أخري إلا أنها فضلت أن تظل كما أنه ظل يقود السيارة بيــد ويســيرها بـــاليد الأخري حتي أبتعد في الصحراء وبعيدا عن الطريق الرئيســي، كــل هــذا ولا شك مؤشرات تفيد موافقة "الضحية" علي "الفعل الجنســي" وإن كانت الصراحة لم تتم من إضافة إلي أن تفاصيل المقاومة لم

تتم بصورة عنيفة كما سبق. وفي معرض الوصف الفعلي لحادث الاغتصاب، إضـــافة ايضــا إلي أن "سلوي" كانت لا تنجب، إذ استمر زواجها لمدة سبع سنوات ورغم ذلك كانت هناك مشكلة عدم الانجاب، ولا شك أن هذه المشكلة في مجتمع يحدد مكانة المرأة بالأنجاب- ويا ليت إنجاب الذكور بالذات - لا شك أن يساهم في عدم اثبات الهوية والذات، فضلا عن أن جريمة الاغتصاب قد تمت عقب عودتها من زيارة شقيقتها "صحراء" تلك الشقيقة كثيرة الانجاب لدرجة أن والد زوجته قد علق علي ذلك قائلا أنه "يريد البحث عن أي شعب يحكم نفسه بحكم ناس وحين لم يصل إلي الحكم قرر الانسحاب بلا نهاية من ســتر ربنا إنه لا يريد أن يكون له ابناء من زوجات اخريات. هو يريد كل جمهوريــته من صحراء ابنتي وسوف يزوج أي ابن فور بلوغه" (ص ٣٧: ٣٨).

وخلاصــــة مـــا ســبق يؤكــد أن "المجــني عليها" كانت تسعي إلي الاغتصـــاب وإن كانت رافضة ذلك علي المستوي الشعوري، إلا أنها كانت تتطلع إلي هذا الفعل دون إرادة منها.

سيكولوجية الجاني أو المغتصب:

أجريت العديد من الدراسات عن "المغتصب".

١- فـــي بعض الدراسات وجدت لديه استعداد أكثر من الطبيعي لاطلاق مشاعر القسوة والغضب والعنف والاعتداء علي الغير.

٢- دراســـات أخري وجدت أن "الفحولة" الجنسية عند المغتصبين ليست زائدة أو مختلفة عن الأسوياء (غير المغتصبين).

٣- وجدت بعض الدراسات أن مفتاح شخصية المغتصب تكمن في أنهم قـــوم ضـــعاف جنسيا، وأنهم لا يحصلون علي انتصاب أو قذف إلا باجــبار امرأة خائفة علي المضاجعة، إذ أن هذا الخوف يطلق لديهم الشهوة من مكامنها.

٤- فســرت بعض الدراسات سيكولوجية المغتصب بأن هناك "خللا" في علاقته المبكرة بالأم، وأْنه يريد "الجنس" من الأخر من خلال طقوس الأهانة والتحقير والاذلال والارغام.

٥- تــري بعــض الدراسات أن "فعل الاغتصاب" هو رد فعل للجنسية المثلية بمعني أن هؤلاء الافراد يرغبون لا شعوريا أن يتم الاعتداء عليهم، وكرر فعل لا شعوري يقومون هم بهذا الفعل حتي ينفر عن نفسه "الميول الجنسية المثلية".

ولكن أي النظريات أو التفسيرات السابقة ترجح سيكولوجية الجاني؟.

في الواقع أننا لا نجد نظرية ما وأن كنا نري ضرورة دراسة ظروف وتاريخ الحالــة لــلوقوف عــلي المرســبات والدوافع الكامنة التي تقف خلف "فعل الاغتصاب".

وان كنا نرجح أن "واوا" ينتمي إلي جماعة إجرامية، وتقوم بالتهريب وســلوك مضــاد للمجتمع، وفي مثل هذه المجتمعات والتجمعات يكون "فعل الاغتصاب.. علامة علي الرجولة والفتوه والقوة، إضافة إلي أن الفعل في حد ذاتــه لا يعــد نفمســة شــاذة وسط كل التجاوزات التي تتم من خلال الاطار المــرجعي لهــذه الجماعــة الشــاذة اضافة إلي أن الاغتصاب يحقق للرجل مضاجعة المرأة بالطريقة التي يهواها أو بذلك تنطلق دوافعه العدوانية الشاذة والتي لا يمكن اخراجها بدون اغتصاب.

ولكن. ما هو التفسير العلمي للاغتصاب؟

تــري وجهة نظر أنه إذا أجتمع رجل وامرأة في مكان ما فإن دوافع أو رغبات ثلاثة تنطلق في نفس الوقت.

١- الدافــع الأول: هــو دافــع الــتحريض حيث يحث الفرد علي ضرورة المضاجعة.

٢- الدافــع الـــثاني: يري أنه إذا تمت المضاجعة بدون رغبة المرأة فسوف تقوم القيامة ويضيع كل شئ.

٣- الدافع الثالث: يري بضرورة الامتثال للقواعد وللاخلاق ومن هنا فبناءا علي "الصراع" بين هذه القوى الثلاث وغلبة إحداها علي الأخرى يكون الفعل.

وهو ما ذكره فرويد من حيث تقسيم النفس الإنسانية إلي ثلاث اجزاء (الهو id، الانا ego، الانا الاعلي Super ego) ووجود الإنسان دوما في حالة صراع بين جانب يسعي بالامتثال إلي الحيوانية، وجانب يسعي إلي الامتثال لقيم المجتمع، وأخر يسعي الإنسان إلي أن يكون مثاليا ملائكيا.

وبـــناءا علي ذلك كيف واجه زوج الضحية/ المغتصبة هذا الفعل أو هذا الضغط أو الاحباط.

في الواقع لقد كان رد فعله يأخذ عدة أشكال:

١- سألها أين كنت فلم ترد. فأخذ يصفعها ثم يعيد السؤال فتهرب منه، ثم يصـــفعها وهكـــذا حـــتي أدرك الأمر (وأن كان الحال - من خلال الملابس والكدمات تنبئ بما حدث لها من ص ٧.

٢- هبط الدرج ليبلغ الضابط سليمان الملط قاطن الدور الأول (من ص ٧٤: ٧٧).

٣- دخل في مرحلة الانطواء والعزلة عن العالم لمدة "ثلاثة أيام دون أن يذهـــب إلي المدرسة.. يشرب الشاي ويدخن ولا يرد علي التليفون ولا يكـــلم ولا تكـــلم لا يخرج ولا تخرج من حجرة النوم إلا لتصنع لنفسها طعاماً او لتدخل الحمام حريصة علي ألا تلقاه" ص ٩١

٤- اســـتطاع زميلاه (سليمان ومنير) أن يعيداه إلي حياته العادية ولعب الشطرنج ولو لبعض الوقت إلا إنه لم يستطيع أن يكمل ويتسمر في هذا الطقس الهروبي (ص ٩٣).

٥- استطاع أن ينسي من خلال شرب البيرة، وطلب من سليمان (ضابط الشرطة) أن يجهز له حشيش ص ٩٣.
٦- تم خطفه وتهديده بضرورة سحب البلاغ إلا أنه لفت الأنظار بقدرته علي الصلابة (الفصل ٩ من ص ٧٨ : ٩٠) .
٧- حاول الإنسلاخ من "عبد الرحمن شمعة" والانضمام إلي جماعة دينية فيما يبدو متطرفة، ولكن وجد أن هدف الجماعة هو "التفقه في الدين" (من ص ٩٨ : ١٠٨).
٨- تـم اقـتياده مـرة أخري إلي الصحراء وتعريضه للعذاب وتهديده بالاغتصـاب الجنسي من قبل ستة وعشرون رجلا ولا أدري السر فـي هذا الرقم بالذات!! ولكنه استطاع الهرب (من ١١٥: ١٣٤ : ١٤٣).
٩- أنـه حين علم بأن زوجه حامل، وأن هذا الحمل لابد أنه من "واوا" المغتصب أقر زوجه علي ضرورة فعل الاجهاض بالرغم من علمه أن ذلـك سيعرضـها للموت، وبالرغم من أن التحاليل قد أثبتت بعد ذلك أن الولد أبنه وهذا قد قاده إلي الجنون.

ولعـل ردود الأفعـال تجاه "فعل الصدمه" بفعل الاغتصاب كلها متوقعة لكن يظـل الشـئ الملفت للنظر هو "تحدي الباشا لواء الشرطة وتعريضه لشتي أنـواع الاذلال والتحقير والضرب والقهر ورغم ذلك ظل محافظا علي مبدأه فـي عدم الرضوخ لأوامر الباشا وسحب البلاغ ولا شك أن النقطة الاخيرة تقودنا إلي طرح قضية: غياب القوة والسلطة؟

فوجود فرد شاذ (مثل لواء الشرطة السابق) المفروض فيه أن يحافظ علي الأمن والقانون هذا لا يعني الشذوذ التام، ولكن المشكلة كانت أخطر لأن مـثل هـؤلاء الافـراد العـارفين بـبواطن الأمور يكون التلاعب بالقانون والمعـارف والصـلات أخطر؟. خاصة إذا كان لا يزال علي علاقة بأفراد

يطـــبقون أوامره حرفيا نظير مصالح متبادلة مشتركة. وأن "المجني عليهم" مـــن الأفـــراد غيـــر المسنودين يكونون ضحايا تطبيق القانون والافتقاد إلي العدالـــة والـــتجاوز فـــي الظلم. فالسلطة هامة جدا في حفظ الأمن والنظام، والمفـــروض تطبيق مواد القانون علي الجميع بلا استثناء، وملفت للنظر في الرواية أن عملية خطف "شريف" مرتين، وتعريضه للعذاب "حيث قيدا قدميه بسلسلة حديدية لها قفل ومثبتة من نهايتها بقاعدة خرسانية مما يدل علي أنها دائمـــة الاستعمال، ولم يكن شريف أو المختطفين ولن يكون اختطافه شريف الاول يكون أخرهم" ص ١١٥.

إضـــافة إلي أن اللواء كان ضمن عصابة (لكن لم يكن هو رئيسها) دوليـــة لترويج المخدرات في مصر إذ سافر واوا إلي السويس واستلم سبعة كيـــلو جرامات من احدث أنواع الهيروين. كانت أول صفقة من هذا الصنف تدخل مصر. وضع فيها الباشا تقريبا معظم مكاسبه من الحشيش. ص ١٣٨

وقـــد حاول الباشا أن يتصل بزملاء له في الشرطة حيث "دفع أكثر مـــن مليون وتنازل عن أرض وعن نساء غير ما وعد به" ص١٣٩ غير أن المأســـاة تصـــل إلـــي قمتها حين استطاع واوا أن يهرب من السجن ويكون إمبراطورية خاصة به وبعيدا عن الباشا (ص ١٤٦) وهذا هو مربط الفرس فـــي مـــثل هذه الجماعات الإجرامية، إذ – بعد فترة من الخبرة والممارسة والعلاقـــات – يستطيع كل فرد أن يكون زعيما، ويضم إلى رعاياه مساعدين آخـــرين يتحولون مع الأيام إلي قادة في حاجة أيضا إلي رعايا وخدم لتنفيذ أوامرهم. وهكذا

والخلاصـــة أن وجود ضابط شرطة (مهما كانت رتبته) منحرفاً فأن هـــذا لا يســـئ إلي هذا الجهاز المنوط به أمن وحراسة الأفراد لكن المشكلة تتجلي في أن مثل هذا الشخص الذي أنحرف يكون أدري بالدروب وبالمسالك لأنه انتقل من صفة مقاومة الاشرار والمجرمين إلي الارتماء في خندقهم.

بقي اخيرا أن نشير بسرعة إلي ملامح شخصية الزوج/ شريف حيث أظهره الراوي من خلال عدة سمات هي:-

١- أنه كان يجد صعوبة في المحافظة علي أداء الصلاة، وكان حريصا علي أدائها أيام والده- وتحت مراقبته- ثم تلاشي الالتزام حتي صلاة الجمعة فقط، وهذا الاخير تلاشي ايضا (من ص ٢٧: ص ٢٨).

٢- أن هوايته الاثيرة كانت إذا سار في الشارع هي : التطلع إلي مؤخرات النساء إذ كان يتأمل ويقيم ويقارن ويسمح لنفسه بأن يتنبأ بمستقبل هذه وتلك . مضت به هذه الهواية أو النزوة إلي مدى بعيد إلي درجة أصبحت عادة وله فيها اراء سرية رهيبة حتي لقد فكر في إحدي المرات المجنونة أن يسجلها في كتاب يخدم به الثقافة.. كان يدمن هذا التحديق وهو يعلم أنه يخوض في أرض حرام لكن قوة غريبة لابد يدفع لها الشيطان اتعابها كانت تدفعه إلي هذا الشرك" ص ٢٩.

٣- أنه كان دوما متفائل وبدون اسباب واقعية

"سنعيش قريبا أزهي عصورنا" ص ٣٧

فهل لهذه السمات الثلاث التي ذكرها الروائي عن شخصية شريف لها دلالة نفسية؟

في الواقع نعم. إذ أن وجود صعوبة في الصلاة معناه وجود صراع لم يحل فيما يتعلق بالسلطة الدينية أو الأبوية، فالوالد كان يفرض عليه ضرورة أن يصلي، وكان يلتزم خاصة وأن الصلاة كانت مرتبطة لديه ليس عن يقين وإنما بسبب واهي وقد لحظ والده مأساته قائلاً: "صلي وصام لأمر كان يطلبه، فلما انتهي الأمر لا صلي ولا صاما" ص ٢٨.

كما ان النظر دوما إلي "مؤخرات النساء" وهو - كما يتضح من الوصف والأدمان علي هذه الهواية- يشير إلي إنحراف جنسي فهل كان "شريف" يعاني من ميول جنسية مثلية، وهل كان يعاني من اضطراب في

العلاقة مع الأم ويعاني من قسوة الأب وبالرغم من أن الروائي لم يوضح لنا في سياق الرواية أي اشارات عن "التنشئة الاجتماعية" وبعض الخبرات التي مر بها "شريف" ابان فترات نموه باستثناء الزام والده بالمحافظة علي الصلاة؟ فلا بد أن يكون هناك خللا ما قد قاده إلي ذلك، وإذا كانت هذه الهواية قد تمكنت منه في فترة ما وهذا ليس شذوذا ولكن مرتبطة بمرحلة نمو ثم يعبرها الفرد إلي مرحلة تالية – فإن الأمر قد اختلف به عقب الزواج وأصبح يجد المتعة مع زوجته وإن كانت لهذه الهواية/ النزوة مرسبات واسباب ودوافع في نفسية شريف.

أما الصفة الثالثة فهي التفاؤل وقد يكون ابراز الكاتب لها كنوع من السخرية والقهر. إذ أن هذا التفاؤل قد أوقعه في قبضة عصابة دولية لها نفوذ وسطوة واذاقته واذاقت امرأته بعضا من "سيمفونياتها في العذاب والأذلال" فهل بعد ذلك سيظل علي "تفاؤله" ولعل كان الكاتب يسخر منه لدرجة أنه اراه بالفعل مغبة هذا التفاؤل الاهوج؟ وهل التفاؤل المستمر ضربا من "عدم الصحة النفسية" لأنه تعامي عن الواقع وقسوته؟ وهل الإنسان السوي هو الذي يزن الأمور ويضع في اعتباره معياري "الخير والشر والتفاؤل والتشاؤم والنفع والضر"؟!

أما إذا أنتقلنا إلي السمات التي تميز شخصية "عم فريد السخن" فقد أبرزها الكاتب في:

١– أن هذا الرجل من ناحية التكوين البدني كان قريبا في ملامحه من المرأة (لولا الصلع) ص٣٠.

٢– كان يعمل بالسكة الحديد وكان دوما يرتدي بدلة وكان المعطف الذي يرتديه يحتوي تقريبا علي "كل ما يلزم" ينوي الدوران حول الكرة الأرضية ص ٣١.

المســئولية، وهي في أوقات الألم والضيق والمشقة تعبر عن رغبات الناس ودوافعهــم المكفوفة أصدق تعبير وهذا يفسر انتشار بعض النكات في أوقات تاريخية معينة وعن قادة سياسيين في السلطة، بالرغم من أن مطلق النكتة في مثل هذه الأحوال يكون مجهول: من ألفها وأعدها، وتصبح بالضبط مثلها مثل الأمثال الشعبية معبرة عن حكمة الشعب بالرغم من عدم معرفتنا من المؤلف لها مجهولين المؤلفين).

والنكتة لها وظيفة اساسية لمن يقوم بألقائها أو تأليفها أنها علي الأقل تســاهم في رفع قيمة الذات، واستعادة قدرها وقيمتها والاحساس بالكيان، أو الاطمئنان إلي قدرة الذات واستعادة الثقة بها.

كما أن النكتة تقوم علي ميكانيزم الانكار Denial والذي يجعل الفرد ينكر أن ما حاق به يسبب "النكت" ولكن لاسباب اخري كامنة في الناس، مثل ضيق صدرهم، وعدم فهمهم وهكذا.

ولذلــك فــإن العديد من العلماء والباحثين يربطون بين سيكولوجية النكــتة وســيكولوجية التخدير أو المخدرات، علي أساس أنهما قائمان علي الانكار، وفي كلا الاسلوبين حيلة دفاعية تعبر عن الذات المحبطة المكفوفة.

ولو حاولت تطبيق ما سبق علي عم فريد السخن (ولا أدري أن كان الســخن لقــبا للعائلة أم صفة أطلقها الأفراد عليه لسخونته الشديدة في إعداد وتجهيز النكات الطازجة؟) نجد أن النكت قد منعته من القيم بالواجبات خاصة المواساة، فهل كانت هذه النكات يواجه بها الحياة من خلال التحدي والسخرية حتي من حقائق الحياة وابسطها الموت؟ وهل محنته في ولديه (الأول هاجر والثاني استشهد قد اكسباه هذه الصلابة واللامبالاة؟!

ولا شــك أن الفــن الجميل الصادق يغرز في المتلقي معان متعددة وهادية لانها تكشف عن جوهر الإنسان بما هو انسان في كافة لحظاته خاصة تلك اللحظات الحميميه.

بعض مراجع القراءة

- عـــبد الرؤوف ثابت: مفهوم الطب النفسي، ط٤، ١٩٩٣، الأهرام، باب: الانحرافات الجنسية.
- سعد جلال: في الصحة العقلية – الأمراض النفسية والعقلية والانحرافات الســلوكية– دار الفكـــر الغربي، الإسكندرية، ١٩٨٦، من ص ٣٩٧ : ٤٢٧.
- محمــد حســن غانم: ديناميات صورة السلطة لدي المسجونين – دراسة نفسية مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩٠.
- محمود أمين العالم: المثقفون والسلطة في المجتمعات العربية، مجلة أدب ونقدم العدد: ٣٨، مايو ١٩٨٨، من ص ٨ : ٢٧.
- زكـــريا إبراهيم: سيكولوجية الفكاهة والضحك، مكتبة مصر، غير مبين سنة النشر.

6- Freud's.: wit and its Realiation to the unconscious N.` MFFARYARD و1916.

